التعرف على

القرآن الكريم

المؤلف
آية الله الشهيد مرتضى المطهري

معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
في منظمة الاعلام الاسلامي

التعرف على

القرآن الكريم

المؤلف
آية الله الشهيد مرتضى المطهري

منظمة الاعلام الاسلامي
٢٥٩

الكتاب: التعرف على القرآن الكريم.

المؤلف: آية الله الشهيد مرتضى المطهري.

المترجم: ناظم شيرواني.

الناشر: معاونية العلاقات الدولية في منظمة الاعلام الاسلامي. الجمهورية الاسلامية في ايران. طهران ـ ص. ب: ١٤١٥٥/١٣١٣.

المطبعة: سبهر / طهران.

التاريخ: الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

طبع منه: ٥٠٠٠ نسخة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر:

لقد كان الأستاذ الشهيد آية الله المطهري مغرما بالقرآن، مولعا بتلاوته تلاوة تفاعل و تعامل.

ولاغرو فهو تلميذ مدرسة أهل البيت عليهم السلام، مدرسة العقل والعاطفة الواعية المستمدة من معين القرآن الكريم.

وهو بالتالي تلميذ الامام الخميني القائد، وهو من عجنت روحه بحب القرآن، وغاص في أعماقه واستمد منه بعد النظرة، وقوة العزيمة، وصلابة الموقف، والاطمئنان الى المستقبل الذي وعد الله تعالى به.

ونحن هنا نشهد الأستاذ الشهيد المطهري يعرّفنا بنظرة جديدة على بعض الآفاق القرآنية. وقد كان يسعى الى تقديم دراسة

متكاملة عنها حتى النفس الأخير من حياته الطاهرة. واذا كان لم يوفق لتقديمها متكاملة فيكفيه فخراً أنه استطاع ان يزرع النظرة السديدة في قلوب طلاب العلوم الدينية، بل في قلوب شباب جيل الثورة الاسلامية، ويوجد ذلك التيار الفكري الأصيل في قبال التيارات التي كانت تعصف بشباب الأمة و تحاول تخديره وابعاده عن مسيرته الصحيحة، والهاءه عن الهدف الاسلامي الثوري الأصيل.

ولئن لاحظنا في هذا الكتاب شيئا من عدم السبك الكامل فذلك لأنه لم يطرح ابتداء بشكل كتاب، وانما بشكل أحاديث أُلقيت في فترات ونقلت من قبل الآخرين الى هذا الشكل، ولذا فمن الطبيعي ان لانجد السبك المطلوب. وقد رجحنا ان يكون هكذا على أيّ تصرف فيه.

وختاما؛

فلنعش مع هذه الروح القرآنية الرائعة، ولنعبَّ من نميرها الثر العذب.

منظمة الاعلام الاسلامي

معاونية العلاقات الدولية

ملاحــظة ضرورية:

الكتـيـب الذي بين يـديك حصيـلة خمس محاضرات الـقاها الأستاذ الشـهيد آية الله المطـهري في جامعة شريف الصـناعية عام ١٩٧٣. في ذلك الوقـت كان مجتمـعنا يشـهد نمـو كارثـة عظمى، كـارثة ناتجة عن الفـراغ الايـديولوجـي وعدم توفـر أسـاس فكري رصين. وفي الوقت نفسه كان هناك عدد قليل من كبار المفكرين الذين كانوا يـتنبأون بالحـادثة قبل وقوعـها، وكان عدد قلـيل منهم يفكـر في ايجاد الحلول. في مـثل هذه الظـروف قرر معلـمنا الـكبير بالرغـم مـن جميـع الصـعاب والمشاكـل ولا مـبالاة المجـتمع ازاء المناقشـات الجديـة والأساسيـة في المجالين الـفكـري والعـقـائدي وبـالرغم من جميع الأخطـار المتوقعـة مـن قبـل الـنظام، النهوض

للنضال ضد تلك الكارثة التي كانت تهدد مجتمعنا وطابعه الاسلامي الأصيل.

ان المحاضرات الخمس التي أُلقيت في ذلك العام كانت جزءاً صغيراً من مشروع كبير خطط له الأستاذ الشهيد من أجل عرض عمله الكبير، مشروع اقامة بناء عقائدي ثابت على أساس الفكر الاسلامي السليم، لكن ومع بدء الاضطرابات الطلابية في تشرين الثاني من ذلك العام وهجوم حرس الجامعة على قاعات الدرس وبالتالي اغلاق الجامعات، توقف العمل في هذا المشروع بعد القاء عدة محاضرات دوّنت في هذا الكتيب.

و«التعرف على القرآن» ــ وهو الاسم الذي انتخبه الأستاذ لتلك المجموعة من المحاضرات ــ كان مقرراً ان يكون مدخلا لجملة من البحوث العقائدية العميقة والأساسية، وهي: الله في القرآن، القرآن في القرآن، الرسول في القرآن، الانسان في القرآن و... الخ بحيث تشكل جميعها مجموعة غنية من المعارف والأفكار المدرجة في هذه الرسالة الإلهية الأخيرة والكاملة، مجموعة كان بمستطاعها ان تكون بهيئة سلاح قوي في أيدي المناضلين المسلمين ليعطوا نضالهم عمقاً وثروة وأهم من ذلك أصالةً ليتمكنوا به من النضال ضد جميع أساليب الخداع ومعاقل عبادة الباطل التي كانت تفرض على انسان قرننا الضائع والمتحير، باسم الايديولوجية والرسالة، ويخرجوا من الساحة منتصرين مرفوعي الرأس.

وبالرغم من ان هذا التلميذ الحقيقي لرسالة القرآن قد واصل العمل في هذا المشروع بعد سنين من توقفه ولحد شهادته، لكن ومع كل الأسف لم تتح للأستاذ الفرصة للقيام بذلك العمل العظيم الذي استأنفه، وفي منتصف الطريق وفي الوقت الذي كانت هذه الشجرة القوية والمثمرة مستعدة لاعطاء الثمار، توقف ذهنه الفعال وقلمه القوي عن الفعالية والحركة، ذلك ان السائرين في طريق الباطل وعشاق الظلام والفوضى لم يتحملوا رؤية شمس أفكاره بل اعتقدوا ان نجاتهم وراحتهم تتلخص في القضاء على هذا المجاهد البطل.

أما حصيلة النشاط الدائب للأستاذ الشهيد خلال الليل والنهار حتى آخر لحظة من حياته، فقد تمثلت بعشرات الآلاف من الأوراق المكتوبة التي أعدت جميعها باعتبارها المواد الأولية اللازمة لاقامة البناء العظيم الذي كان الأستاذ يفكر به. وستكون هذه الكتابات التي تنظّم تدريجيا وتوضع بين أيدي عشاق و محبي الرسالة الاسلامية، مفتاح الطريق الجديد لدراسة أبعاد الوجوه المتعددة للرسالة التي تبني الانسان وتقرر مصيره وسيكون لها دور كبير في إحياء الأفكار الاسلامية السليمة.

ومع ان هذا الكتيب غير كامل ولا يحتوي على بحث مفصل، غير انه جيد ومفيد مثل جميع محاضرات الأستاذ الشهيد وأفكاره وان ماتم عمله لتنظيم هذا الكتيب يتلخص في نقل المحاضرات على

الورق مع حذف بعض العبارات المكررة واكمال وتنقيح عبارات أخرى.

بسم الله الرحمن الرحيم

التعرف على القرآن الكريم

تعتبر معرفة القرآن بالنسبة لكل شخص عالم بوصفه شخصاً عالماً وكل فرد مؤمن بوصفه فرداً مؤمناً، أمراً ضرورياً ولازماً. أما بالنسبة لعالم متخصص بعلم الانسان وعلم الاجتماع، فان معرفة القرآن تكون ضرورية، لأن هذا الكتاب كان له التأثير العميق في تحديد مصير المجتمعات الاسلامية، بل في تحديد مصير البشرية. وبالقاء نظرة على التاريخ تتكشف الحقيقة التالية وهي: ان أي كتاب لم يؤثر عمليا مثل القرآن في المجتمعات البشرية وفي حياة الانسان[1] ولهذا السبب فان القرآن يدخل من تلقاء نفسه في نطاق بحث علم الاجتماع ويصبح واحداً من مواضيع دراسة هذا العلم، وهذا يعني انه لايمكن اجراء دراسات وتحقيقات حول تاريخ العالم خلال القرون الأربعة عشر الماضية بشكل عام والمجتمعات الاسلامية بشكل خاص، مالم تتم معرفة القرآن.

اما ضرورة معرفة القرآن بالنسبة لشخص مؤمن ومسلم، فتكمن في ان القرآن هو المصدر الرئيس والأساس لدين المسلم وايمانه وفكره، وهوالذي يمنح حياته طابع السعي والحرمة والروح ويجعلها ذات معنى.

القرآن لايشبه بعض الكتب الدينية التي تطرح جملة من المسائل الرمزية حول الله والخلق والتكوين، وأقصى ماتضم عدداً من النصائح الأخلاقية البسيطة، ليضطر المؤمنون الى استخراج واستنباط الأحكام والأفكار من مصادر أخرى، بل هو يشرح ويبين أصول المعتقدات والأفكار والآراء التي تعتبرلازمةوضرورية للانسان بصفته موجوداً ذا ايمان وصاحب عقيدة، ويوضح كذلك أصول التربية والأخلاق والنظم الاجتماعية والعائلية، ويكتفي فقط بوضع مهمة التوضيح والتفسير والشرح ــوفي بعض الأحيان الاجتهاد وتطبيق الأصول على الفروع ــعلى عاتق الشريعة أو الاجتهاد. اذاً فالاستفادة من أي مصدر آخر يعتمد على معرفة سابقة بالقرآن الذي يشكل مقياساً ومعياراً لجميع المصادر الأخرى، لذلك يتوجب علينا ان نقيّم الحدث والشريعة بمعيار القرآن لكي نقبله ان كان مطابقاً للقرآن ونرفضه ان كان مخالفا له.

وتشكل الأحاديث والكتب الأربعة التالية وهي: «الكافي» و «من لايحضره الفقيه» و «التهذيب» و «الاستبصار» و

«خطب نهج البلاغة» و «الصحيفة السجادية» ايضا، أهم وأقدس مصادرنا بعد القرآن، وتعتبر فروعا الى جانب القرآن لكنها لا تصل الى مستواه، وبتعبير آخر لن تكون أحاديث الكافي معتبرة مالم تكن مطابقة للقرآن الكريم وتعليماته وغير مغايرة له. لقد كان الرسول(ص) والأئمة الأطهار يطلبون من اصحابهم ان يقارنوا بين احاديثهم والقرآن فاذا لم تكن مطابقة للقرآن فليعلموا انها مفتعلة ومزيفة ومنسوبة اليهم فهم لايقولون مالا يتفق مع القرآن.

أقسام معرفة القرآن

الآن وقد اتضحت ضرورة معرفة القرآن، علينا ان نعرف ماهو طريق معرفة هذا الكتاب؟ ان دراسة ومطالعة كل كتاب بصورة عامة تستلزم ثلاثة انماط من المعرفة:

الأول: المعرفة السندية أو الإنتسابية

في هذه المرحلة نريد ان نعرف مدى حتمية نسبة الكتاب الى كاتبه. على سبيل المثال افرضوا اننا نريد ان نعرف ديوان حافظ أو الخيام[٢]، فيلزمنا أولاً ان نعرف هل ان كل ما اشتهر باسم ديوان حافظ يعود كله لحافظ أم ان قسما منه يتعلق بحافظ والباقي منسوب اليه. وكذلك الحال بالنسبة للخيام والآخرين. وهنا تطرح النسخ الخطية نفسها، وبالطبع تكون أقدم النسخ اكثرها اعتباراً.

ومن هذا المنطلق نرى ان جميع الكتب دون استثناء بحاجة الى هذا النوع من المعرفة. فديوان حافظ الذي طبعه المرحوم القزويني والمتضمن للنسخ المعتبرة يتباين كليا مع نسخ أخرى من ديوان هذا الشاعر والتي كانت تطبع في ايران و بومباي والمتوفرة لدى اكثر العائلات. وتشكل نسخ الدواوين التي طبعت باسم حافظ قبل ٣٠ــ٤٠ سنة مضت ضعف النسخ التي يعتبرها الأخصائيون اليوم نسخا معتبرة، بينما يتم في بعض الأحيان الحصول من بين الأشعار التي يعتبرها الأخصائيون منسوبة ومزيفة، على أشعار بمستوى أشعار حافظ الجيدة، او عند ما تلقون نظرة على الرباعيات المنسوبة الى الخيام يمكن ان تشاهدوا مايقارب ٢٠٠ رباعية هي بمستوى واحد واذا كان هناك تباين فانه يكون ضمن تلك الحدود الموجودة بين كل الشعراء، وكلما رجعتم الى الوراء من الناحية التاريخية واقتربتم من عصر الخيام فسترون أن الرباعيات المنسوبة اليه من بين هذه المجموعة يمكن ان تكون أقل من عشرين، بينما البقية إما مشكوك فيها، وإما أنها تتعلق بشعراء آخرين.

وعلى هذا الأساس تتوقف المرحلة الأولى لمعرفة كتاب ما على مدى صحة نسبة الكتاب الى قائله او جامعه وهل ان نسبة جميع الكتاب صحيح أم ان قسما منه صحيح والباقي غير صحيح؟ وفي هذه الحالة ما هي النسبة المئوية من المواضيع التي نستطيع ان

نؤيدها من ناحية الانتساب؟ اضافة الى ذلك ما الدليل الذي نستطيع على ضوئه ان نرفض جزءاً منه ونؤيد جزءاً آخرونشك في جزء غيره؟

القرآن ليس بحاجة الى هذا النوع من المعرفة، وعلى هذا الأساس فان الكتاب يتعلق بالعالم القديم ولا يمكن الحصول من بين الكتب القديمة على كتاب آخر مرت عليه قرون، وظل الى هذا الحد بعيداً عن الشبهات. ان مثل هذه المسائل وهي ان السورة الفلانية مشكوك فيها والآية الفلانية توجد في النسخة الفلانية ولا توجد في النسخة الفلانية و.. الخ، ليست مطروحة أساسا حول القرآن، بيد ان القرآن تقدم على النسخ واخصائيي النسخ. ومما لاشك فيه ان الذي جاء بهذه الآيات هو محمد بن عبدالله بمثابة معجزات وكلام الله، وليس بامكان أي كان ان يدعي وجود قرآن آخر غير هذا ولم يظهر الى اليوم أي مستشرق في العالم يريد دراسة القرآن ويقول: يجب ان نبحث عن النسخ القديمة من القرآن لنرى ماذا يوجد وماذا لايوجد فيها. واذا كان هناك مثل هذه الحاجة بالنسبة للتوراة والانجيل وكتاب اوستا او شاهنامة فردوسي وروضة سعدي وأي كتاب آخر، فان القرآن في غنىً عنها.

عدم الحاجة هذا ينشأ مثلما ذكرنا من تقدم القرآن على النسخ واخصائيي النسخ، فالقرآن علاوة على كونه كتاباً سماوياً مقدساً

وينظر اليه مؤيدوه من هذه الزاوية، كان يعتبر اكبر دليل وبرهان لصدق ادعاء الرسول الأكرم ومن اكبر معجزاته. ثم ان القرآن لم يكن مثل التوراة لينزل مرة واحدة ويتم التساؤل عن النسخ الرئيسة، بل ان آيات القرآن نزلت بالتدريج خلال ٢٣ عاما. ومنذ اليوم الأول كان المسلمون يقرأون القرآن ويتعلمونه ــ مثل الانسان الكثير العطش الذي يشاهد أمامه ماء عذباً ــ وكانوا يحفظونه ويسجلونه عندهم. خاصة وان مجتمع المسلمين في تلك الأيام كان بسيطا ولم يكن هناك كتاب آخر لكي يضطر المسلمون الى حفظه وتسجيله مع العلم ان الذهن الخالي وتوفر حافظة قوية و تفشي الأمية أدى بالمسلمين الى ان يتلقوا معلوماتهم مما كانوا يرونه او يسمعونه، لذلك فان رسالة القرآن التي كانت تتجاوب مع أحاسيسهم وعواطفهم استقرت في قلوبهم بالضبط كالنقوش في الاحجار. وبما انهم كانوا قد اعتقدوا بأنه كلام الله وليس كلام البشر فقد كانوا يقدسونه ولا يسمحون لأنفسهم ان يتلاعبوا بكلمة أو حرف منه او يقدموا أو يؤخروا فيه، وكانوا يسعون على الدوام الى التقرب الى الله بتلاوة هذه الآيات. اضافة الى كل ذلك فان الرسول الأكرم(ص) انتخب منذ اليوم الأول عدداً من الكتاب لتدوين القرآن ويسمون بـ«كتاب الوحي». ويعتبر هذا امتيازاً للقرآن بحيث لم يتمتع به أي كتاب آخر من الكتب القديمة. وكان تدوين كلام الله منذ الأيام الأولى من جملة

الأسباب الحتمية لحفظ وصيانة القرآن.

* * *

ومن الاسباب الأخرى التي دفعت الناس لقبول القرآن، الجانب الأدبي والفني المنقطع النظير لهذا الكتاب الذي يتم من خلاله التعبير بفصاحة وبلاغة، فالجاذبية الأدبية الكبرى للقرآن كانت تدفع الناس الى الاهتمام بالقرآن وتعلمه بسرعة. وخلافاً لسائر الكتب الأخرى مثل ديوان حافظ واشعار مولوي و... الخ التي يتلاعب بها القراء ليكملوه حسب اعتقادهم، فان احداً كان لايتجرّأ على التلاعب بالقرآن، ذلك ان الآية التالية:

«ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثمّ لقطعنا منه الوتين».

(الحاقة: ٤٤ـ٤٦)

والآيات الأخرى التي كانت تكشف عن عِظَم جريمة نسبة الأقاويل الى الله، كانت تتجسم في ذهن من يحاول التلاعب به وتدعوه الى ان يحجم عن هذا العمل المنكر.

وقبل ان يجد التحريف منفذاً الى هذا الكتاب السماوي فان آيات القرآن وصلت الى مرحلة بحيث اصبح من غير الممكن انكار القرآن او اضافة حتى حرف واحد اليه أو حذف حرف منه، لذلك فنحن لسنا بحاجة الى دراسة القرآن من هذه الزاوية بالضبط مثلما لايجد علم القرآن نفسه بحاجة الى مثل هذه الدراسة.

لكن يجب الاشارة الى المسألة التالية وهي استناداً الى اتساع رقعة الاسلام بسرعة كبيرة والاهتمام الكبير الذي أبداه الناس في العالم بالقرآن وايضا بسبب تزايد عدد المسلمين خارج المدينة التي كانت مركزاً للصحابة وحافظي القرآن، فان خطر تغيير القرآن بشكل متعمد او غير متعمد كان موجوداً في المناطق البعيدة، غير ان يقظة ومحاولات المسلمين وقفت في وجه هذا الأمر وحالت دونه. لقد أحس المسلمون بهذا الخطر منذ منتصف القرن الأول ولهذا استفادوا من الصحابة وحافظي القرآن ووزعوا نسخاً مصدقة خارج المدينة للحد من التغييرات التي قد تطرأ على القرآن بصورة متعمدة أو غير متعمدة في المناطق البعيدة عن المدينة، ومنعوا الى الأبد حصول أي تغيير في القرآن خاصة وان اليهود كانوا من اكثر المصممين على هذا الأمر.

الثاني: المعرفة التحليلية

المرحلة الثانية تختص بدراسة تحليلية للكتاب، وبتعبير آخر يجب ان نعرف ماذا يحوي الكتاب وما هو هدفه؟ وماهو رأيه حول الكون وحول الانسان وحول المجتمع ايضا وكيفية طرح المسائل فيه وأسلوب تطرقه لتلك المسائل؟ وهل يمتلك نظرة فلسفية أم نظرة علمية كما يسمونها اليوم؟ وهل ينظر الى الأمور من زاوية عرفانية أم من زاوية أخرى تختص به فقط؟ وهل يحمل الكتاب رسالة

وإرشاداً الى البشرية أم لا؟ واذا كان الجواب إيجابياً فما هي تلك الرسالة؟ في الحقيقة ان المجموعة الأولى من هذه الأسئلة تتعلق بنظرة هذا الكتاب الى العالم والانسان والحياة والموت... الخ وبتعبير أدق: النظرة الكونية للكتاب أو الحكمة النظرية كما يطلق عليها فلاسفتنا، بينما المجموعة الثانية من الأسئلة تدور حول المشروع الذي يقدمه الكتاب لمستقبل الانسان، والاساس الذي يستند اليه الكتاب لبناء الانسان والمجتمع. هذه الأشياء نقول عنها «رسالة» الكتاب.

* * *

يجب في هذا الفصل ان نعرف المسائل التي يتضمنها القرآن وكيفية عرض هذه المسائل، والاستدلالات والحجج القرآنية في المجالات المختلفة وان القرآن باعتباره حافظ الايمان وحارسه ورسالته رسالة ايمانية؛ هل ينظر الى العقل بعين منافس، ويتصدى لهجومه لتقييده أو انه ينظر اليه بعين مؤيد ومدافع ويستمد منه قوته؟ هذه الأسئلة وعشرات الأسئلة المماثلة التي تطرح خلال المعرفة التحليلية تقربنا من القرآن اكثر فأكثر.

الثالث: المعرفة الجذرية

يجب في هذه المرحلة بعد التأكد من صحة تعلق كتاب ما بكاتبه وبعد تحليله ودراسته بشكل جيد، ان نجري تحقيقاً في

الأمور التالية وهي: هل ان مواضيع ومحتويات الكتاب مبتكرة من قبل كاتبها أم انها مأخوذة من افكار الآخرين؟ فعلى سبيل المثال، يجب بعد اجراء المرحلتين الأولى والثانية على ديوان حافظ ان نعرف هل ان هذه المواضيع والأفكار والآراء التي جاء بها حافظ على هيئة كلمات واشعار وعبارات، وعبرعنها بلغته الخاصة، مبتكرة من قِبَله أم ان المفردات والعبارات الجميلة والأدبية فقط، تتعلق به بينما الفكرة تعود للآخرين؟ وبتعبير آخر يجب بعد التأكد من الاصالة الأدبية لحافظ التأكد من اصالته الفكرية[٣].

هذا النوع من المعرفة حول حافظ أو اي مؤلف آخر ليست إلاّ معرفة من ناحية مصدر افكار المؤلف. ومثل هذه المعرفة تعتبر فرعاً للمعرفة التحليلية، وبتعبير آخر يلزمنا أولاً وقبل كل شيء معرفة دقيقة بالمحتوى الفكري الخاص بالمؤلف، ثم القيام بالمعرفة الجذرية. وإلاّ فان نتيجة العمل تكون مشابهة لآثار بعض كتاب تاريخ العلوم ممن ليست لهم أية أرضية علمية ومع ذلك يكتبون تاريخ العلوم كعدد من مؤلفي الكتب الفلسفية الذين يعتزمون مثلاً الكتابة عن ابن سينا وارسطو وأوجه التشابه والاختلاف بينهما، لكنهم مع الأسف لايعرفون ابن سينا ولا ارسطو. مثل هؤلاء يصدرون رأيهم حال توصلهم الى تشابهات لفظية من خلال مقارنة صغيرة، بينما تستلزم المقارنة فهم وادراك عمق الافكار

وماهيتها، ولكي يتم ادراك عمق افكار بعض المفكرين مثل ابن سينا وارسطو فاننا بحاجة الى وقت طويل، والاّ فان مايقال ليس الاّ تخميناً وتقليداً أعمى.

وفي مجال دراسة القرآن ومعرفته علينا بعد القيام بدراسة تحليلية حوله ان نقوم بالمقارنة والتحليل التاريخيين، أي ان نقارن القرآن وما يحتويه بالكتب الأخرى وخاصة الكتب الدينية التي كانت موجودة آنذاك

ويشترط في هذه المقارنة الأخذ بعين الاعتبار جميع الظروف والامكانيات كحجم ارتباط شبه الجزيرة العربية بسائر النقاط والمناطق الأخرى وعدد الناس والمتعلمين آنذاك الذين كانوا يعيشون في مكة و... الخ. وعند ذلك يجب أن نتأكد هل ان مايوجد في القرآن يوجدفي كتب أخرى أم لا؟ واذا وجد فما هي نسبته؟ وهل ان المواضيع المشابهة لمواضيع الكتب الأخرى، مقتبسة أم مستقلة؟ وهل يقوم بمهمة تصحيح أخطاء تلك الكتب ويبين انحرافاتها ام لا؟

أصالات القرآن الثلاث

ان دراسة القرآن تقربنا من «الأصالات الثلاث» لهذا الكتاب.

فأولى أصالات القرآن:

هي أصالة الانتساب من دون أية شبهة وحاجة الى البحث عن النسخ القديمة. والمعروف ان ماتتم اليوم تلاوته باسم القرآن هو نفس الكتاب الذي عرضه الرسول الأكرم(ص) بعد ان جاء به.

أما الأصالة الثانية: فهي أصالة المواضيع، أي ان تكون معارف القرآن غير مقتبسة بل مبتكرة. والتحقيق في هذا المجال يعتبر من وظائف المعرفة التحليلية.

والأصالة الثالثة:

هي أصالة القرآن الإلهية، أي ان تكون هذه المعارف قد افيضت الى الرسول الأكرم من آفاق ماوراء ذهن الرسول(ص) وفكره، وان الرسول ليس إلاّ حاملاً لهذا الوحي وهذه الرسالة. ومثل هذه النتيجة يتم الحصول عليها من المعرفة الجذرية للقرآن.

أما المعرفة الجذرية ــ أو بتعبير آخر تحديد أصالة المعارف القرآنية فتستند الى معرفة من النوع الثاني. وعلى هذا الأساس

نستأنف بحثنا حول المعرفة التحليلية، أي نتطرق الى المسألة التالية وهي؛ ماهي محتويات القرآن؟ وماهي المسائل المطروحة فيه؟ وما هي المسائل التي يتم التأكيد عليها فيه؟ وماهي كيفية عرض مواضيعه؟ ولو تمكنا في المعرفة التحليلية ان نعطي الموضوع حقه وننفذه بأحسن وجه ونتعرف على معارف القرآن بشكل أفضل لتوصلنا الى أصالة تعتبر أهم أصالات القرآن، ألا وهي «الأصالة الإلهية» أي كون القرآن معجزة كما أسلفنا.

شروط معرفة القرآن

تأتي معرفة القرآن وفق شروط يمكن اجمالها واختصارها كما يلي:

الشرط الأول:فهم اللغة العربية: فمثلما لايمكن معرفة حافظ وسعدي من دون فهم اللغة الفارسية، كذلك لايمكن فهم القرآن دوت تعلم اللغة العربية.

والشرط الثاني: فهم التاريخ الاسلامي: لأن القرآن لم يُعرض مرة واحدة من قبل الرسول (ص) ــ كما كان الأمر مع التوراة والانجيل ــ بل نزل خلال ما يقارب الـ (٢٣) عاما من حياة الرسول (من يوم مبعثه الى وفاته)، وخلال التاريخ الاسلامي

المليء بالعظمة، ولهذا السبب تمتلك آيات القرآن ما يسمى بـ (شأن النزول)، وشأن النزول ليس شيئا يحصر معنى الآية في نطاقه، وانما يؤثر بدرجة كبيرة في توضيح مضمون الآيات ويعتبر مفتاح حل.

أما الشرط الثالث: فهو فهم وادراك احاديث الرسول الأكرم(ص):

فالرسول اول من فسّر القرآن، والمفسر يعني الشخص الذي يبين مضمون القرآن كما جاء في القرآن بهذا الصدد:

«وأنزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس مانزل اليهم».

(سورة النحل/٤٤)

وجاء في آية اخرى:

«هوالذي بعث في الأميّين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة».

(الجمعة/٢)

فاستناداً الى ما ورد في القرآن الكريم، يعتبر الرسول الأكرم(ص) مفسر هذاالكتاب، وما أثر عن الرسول يساعدنا على تفسير القرآن. أما بالنسبة لنا ـــ باعتبارنا شيعة ونؤمن بالأئمة الأطهار وبأن ما ملكه الرسول بواسطة الله قد نقل الى أوصيائه ـــ فان أحاديث الأئمة الموثوقة، لها نفس اعتبار أحاديث الرسول(ص)، لذلك تشكل روايات الأئمة الموثوقة دعماً كبيراً في

طريق معرفة القرآن وفهمه.

والمسألة المهمة التي يجب التأكيد عليها خلال دراسة القرآن، تتمثل في ضرورة معرفة القرآن بالقرآن نفسه. والمقصود بهذا الكلام ان آيات القرآن تشكل بمجموعها بناء متصلا، وبتعبير آخر اذا فصلنا آية عن بقية آيات القرآن وقلنا نريد ان نفهم هذه الآية فقط فاننا لم نتخذ اسلوبا جيداً. يحتمل ان يكون فهمنا لتلك الآية صحيحا لكن هذا العمل يبقى ناقصا لأن القرآن يفسر بعضه بعضا، بالضبط مثلما يقول بعض المفسرين ان الأئمة الأطهار وافقوا على أسلوب التفسير هذا. القرآن له أسلوب خاص به في توضيح المسائل. واذا أخذنا آية واحدة من القرآن دون ان نضعها الى جانب الآيات المشابهة لها فان معناها سيكون متباينا بدرجة كبيرة مع معناها في حالة وجودها مع الآيات التي لها نفس المضمون.

فعلى سبيل المثال تعتبر الآيات المحكمة والآيات المتشابهة نموذجا من أسلوب القرآن الخاص. هناك آراء عامة حول المحكمات والمتشابهات فالبعض يتصور ان الآيات المحكمة، آيات طرحت مضامينها بشكل مبسوط وصريح بعكس الآيات المتشابهة حيث تكون مضامينها على شكل رموز وألغاز. واستناداً الى هذا التعريف يحق للناس أن يتدبروا في الآيات المحكمة أي الصريحة فقط على العكس من الآيات المتشابهة حيث طرحت مفاهيمها بشكل

الغاز ومعميات ورموز. وهنا يطرح السؤال التالي نفسه، ماهي فلسفة الآيات المتشابهة؟ ولماذا جاء القرآن بآيات غير قابلة للفهم؟ الاجابة على هذين السؤالين تتلخص في ان معنى المحكم ليس الصراحة والبساطة كما ان معنى المتشابه ليس الرمز واللغز، ذلك ان اللغز والرمز لفظان مبهمان لايمكن فهمهما بصورة مباشرة. فمثلا عندما خصص السلطان محمود شيئا بسيطا للشاعر الفردوسي لخدماته التي قدمها فان الفردوسي رفضه حتى انه هجا السلطان محموداً في أشعاره واتهمه بالبخل والإمساك فكانت المعاني في بعض الأبيات صريحة وفي البعض الآخر رمزية فمثلا يقول في أحد أبياته:

كف الملك محمود الفاتح تسعة في تسعة مع ثلاثة في أربعة.[٤]

مامعنى هذا الكلام؟ استعمل الشاعر لغزاً يلزم حله لفهم البيت المذكور ويقصد الفردوسي من هذا البيت مايلي:

ان حاصل ضرب ٣×٤+٩×٩=٩٣

يقول الفردوسي: ان كف السلطان محمود تشبه رقم ٩٣، أي ان كفه مقبوضة بشكل حيث ان اصبع الابهام هو الوحيد المفتوح في هذه الحالة ويشكل مع السبابة رقم(٩) ويشكل هذان الاصبعان مع الأصابع الأخرى عدد ٩٣. اذن ارادالفردوسي بهذا البيت أن يبين شدة بخل السلطان.

والآن هل توجد آيات رمزية في القرآن؟ هذا الكلام أو

بالأحرى هذا السؤال يتباين مع ماجاء في القرآن اذ يقول:

«ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين».

ونحن لاننسى ان بعض المسائل المطروحة في القرآن خاصة المتعلقة منها بأمور الغيب وما وراء الطبيعة غير قابلة للبيان بالمفردات، وعلى حد قول الشيخ الشبستري ماترجمته:

المعنى لايأتي في الكلام دائما

مثلما لايستوعب الصحن بحرا عظيما

وبما ان لغة بيان القرآن هي نفس لغة البشر، فقد تم التعبير عن المواضيع اللطيفة والمعنوية بعبارات يستعملها البشر في المواضيع المادية، ولكي لانقع في الملابسات، فان بعض الآيات تطرح بشكل يلزم تفسيرها معه بالاعتماد على الآيات الأخرى، وليس هناك حل غير هذا. فعلى سبيل المثال اراد القرآن ان يتحدث عن حقيقة اسمها رؤية الله بالقلب (أي ان الانسان يستطيع ان يرى الله بقلبه) فاستخدم في الآيتين التاليتين:

«وجوه يومئذ ناضرة * الى ربها ناظرة».

(القيامة/٢٢ــ٢٣)

لفظ الرؤية ولم يكن لديه لفظ مناسب غير هذا للتعبير عن مقصوده ولكي لانقع في الخطأ يقول في مكان آخر:

«لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار».

(الانعام/١٠٣)

ويرى القارئ، أن هذه الأمور منفصلة عن بعضها بالرغم من التشابه اللفظي الموجود بينها. ويقول القرآن كي يمنع اختلاط تلك المعاني العظيمة والرائعة بالمعاني المادية، ارجعوا المتشابهات الى المحكمات:

«انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب».

(آل عمران/٧)

ومثلما يراجع الطفل أمه باعتبارها مرجع الطفل، او المدن الكبيرة ــ ام القرى ــ التي تعتبر مرجع المدن الصغيرة، فان الآيات المحكمة تعتبر بدورها مرجعا للآيات المتشابهة. فالآيات المتشابهة خاصة بالفهم والتدبر شريطة ان يكون هذا التدبر بمساعدة الآيات المحكمات. ومايؤخذ من الآيات المتشابهة دون الاعتماد على الآيات الأم لن يكون صحيحا او معتبرا.

هل القرآن قابل للفهم؟

ان اول سؤال يطرح نفسه عند تحليل ودراسة فحوى القرآن هو، هل ان القرآن قابل للفهم والدراسة؟ وهل بالامكان التفكير والتدبر في قضاياه، ومسائله؟ ام ان هذا الكتاب لم يعرض اساسا للمعرفة بل للتلاوة والقراءة أو الثواب والتبرك واليمن؟ يحتمل ان نقول في انفسنا، انه لاداعي لمثل هذا السؤال، ذلك ان أحداً لايشك في مسألة ان القرآن كتاب للمعرفة. لكن نظراً للقضايا

السلبية التي طرحت في العالم الاسلامي حول مسألة معرفة القرآن التي لعبت دوراً كبيراً في انحطاط المسلمين والموجودة جذورها لحد الآن في مجتمعنا، نرى انفسنا ملزمين باعطاء توضيحات في هذا الخصوص:

لقد ظهر من بين المحدثين في القرون الثلاثة أو الأربعة الماضية اشخاص كانوا يعتقدون ان القرآن ليس حجة، وكانوا يرفضون ثلاثة من المصادر الأربعة للفقه التي قدمت من قبل علماء الاسلام بمثابة معيار معرفة المسائل الاسلامية، والتي تتكون من القرآن والشريعة والعقل والاجماع. فبالنسبة للاجماع كانوا يقولون انه منهج مرفوض ولا يجوز اتباعه، وفيما يتعلق بالعقل كانوا يقولون ان العقل بسبب اخطائه الكثيرة لايجوز الاعتماد عليه، وحول القرآن كانوا يدعون بكل أدب ان القرآن اكبر بكثير من مستوانا نحن الذين نريد مطالعته والتفكر فيه، والرسول والأئمة وحدهم لهم حق التبحر في آياته، اما نحن فلنا حق التلاوة فقط، تلك الفئة لم تكن سوى فئة الاخباريين.

يقول الاخباريون لايجوز سوى مراجعة الأخبار والأحاديث. يحتمل ان تصيبكم الدهشة اذا علمتم ان هؤلاء كانوا يذكرون في تفاسيرهم الأحاديث ان وجدت تحت الآيات وفي غير هذه الصورة كانوا لايذكرون الآية وكأن تلك الآية ليست من آيات القرآن!!

ويشكل هذا الأمر ظلما بحق القرآن وخروجا عليه، وواضح

ان المجتمع الـذي يرفض بهذا الشـكل، كتابـه السماوي المـتمثل بالقرآن ويتجاهله، لن يسير مطلقا في طريق القرآن.

وفي ماعدا فئة الاخباريين، كـانت هناك فئات أخرى تـؤكد ان الـقرآن بعـيد عن الـناس، من هذه الـفئات فـئة الأشاعرة التي كانت تعتـقد ان معرفة الـقرآن لا تعني التدبـر فيه، بل فهم المعاني الحرفـية للآيات وبتعـبير آخـر، نقبل ما نفـهـمه من ظاهر الآيات ولانـعير اهـتمـامـا لبـاطنهـا. وفي الحـقيـقـة يؤدي اتخـاذ مـثـل هذا الأسـلوب حول الـقـرآن الى الانحراف والضلالة، ذلك ان هؤلاء كـانـوا مضطرين لاعطـاء مـعـاني الآيات. وبما انهـم اوقـفوا حركة العقل، فلـم يفهموا الـقرآن بشكل صحـيح، لذلك انحرفـوا بسرعة عن طريـق الادراك الصحـيح، واكـتسبوا اعـتقـادات باطلة. منها انهـم كـانـوا يعـتـقـدون بـأن الله جسم، ومـئـات أخـرى مـن هذه الاعـتـقـادات مثل امكـانـية رؤية الله بالعين والتـحـدث اليه بلغة البشر و... الخ.

امام تلك الـفئة التي ابـتعدت عن القرآن، ظهـرت فئة أخرى استخدمت الـقرآن وسيلة لـتحقيق اهدافها و اغراضها، على سبيل المثال كانت تؤوِّل آيات القرآن متى ما اقتضت مصالحها و تنسب الى هذا الكتاب مسائل لم يتطرق اليها أبداً. وكانت الفئة المذكورة تجيب على الاعتراضـات والاحتجاجات المختلفة بالقول: اننا الفئة الوحيدة التي تعـلم بباطن الآيـات، وما نقوله يـنبع أساساً من فهم

وادراك باطن هذه الآيات.

ورجال هذا التيار في التاريخ الاسلامي فريقان:

الاسماعيليون «المسمون بالباطنيين»، والمتصوفون. ويوجد الاسماعيليون على الاغلب في الهند والى حد ما في ايران. وقد أقام هؤلاء حكومة في مصر سميت بحكومة الفاطميين ويعتبرون من الشيعة الذين يؤمنون بستة أئمة وهم في الواقع استنادا الى اجماع واتفاق جميع علماء الشيعة الا ثني عشرية، اكثر ابتعاداً عن التشيع من أي مسلم آخر غير الشيعي، حتى ان السنة الذين لايقبلون أي واحد من الأئمة بالشكل الذي يعتقده الشيعة هم اقرب الى الشيعة ممن يسمون بشيعة الأئمة الستة[٦].

لقد ارتكب الاسماعيليون ــ من خلال ميولهم الباطنية ــ ، خيانات عديدة في التاريخ الاسلامي، ولعبوا دوراً بارزاً في تحريف المسائل الاسلامية.

ولو غضضنا النظر عن الاسماعيليين، لرأينا ان للمتصوفين اليد الطولي في تحريف و تأويل الآيات وفق تصوراتهم الشخصية. وهنا نشير الى نموذج من تفاسير هؤلاء ليتضح اسلوبهم التحريفي، ويطالع القارئ حديثا مفصلا عن هذه المسألة.

جاء في القرآن حول قصة النبي ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام، ان ابراهيم أمر في المنام بذبح ابنه في سبيل الله. فأصابته الدهشة للوهلة الأولى، وبعد ان تكرر المنام توصل الى اليقين

واستسلم لأمرالله وأخبر ابنه بالأمر، فما كان منه الاّ أن أطاعه باخلاص، استسلم للأمر الإلهي[7]. كان المقصود بالطبع، الاستسلام لأمر الحق ولهذا السبب عندما استعد الأب وابنه لتنفيذ أمرالله تعالى انطلاقا من اخلاصهما له، توقف تنفيذه باذن الله. غير ان المتصوفين كانوا يقولون ان المقصود من ابراهيم هو العقل والمقصود من اسماعيل هوالنفس وكان العقل ينوي ذبح النفس!

الواضح ان مثل هذا الاستنتاج يعني التلاعب بالقرآن و تقديم نوع من المعرفة المحرفة. يقول الرسول(ص) حول هذا النوع من الاستنتاجات المحرفة المبنية على الأهواء والرغبات الشخصية والجماعية:

«من فسّر القرآن برأيه فليتبوأمقعده في النار».

مثل هذا التلاعب بالقرآن يعد خيانة كبرى بحق القرآن[8].

ويقترح القرآن امام الجمود والتصلب الفكري للاخباريين و نظائرهم وامام انحرافات واستنتاجات الباطنيين الباطلة وغيرهم، حلاً وسطاً وهو التأمل والتدبر اللامغرض والمنصف. فهو يدعو ليس المؤمنين فحسب وانما المعارضين كذلك للتعمق بآياته و ينصحهم بالتفكير حول تلك الآيات بدلا من الوقوف بوجهها. يقول لمعارضيه:

«أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها».
(سورة محمد ـــ الآية ٢٤)

ويقول في آية أخرى:

«كتاب انزلناه اليك مبارك».

(ص / ٢٩)

لماذا؟ ليَدَّبـَّروا آياته. فالقرآن لم ينزل ليقبل او ليوضع على الرفوف،بل للتدبر والتفكر في آياته، وليتذكر أولو الألباب.

هذه الآيات و عشرات الآيات الأخرى التي تؤكد على التدبر في القرآن تسمح كلها بتفسير القرآن ليس تفسيراً على أساس رغبات وأهواء النفس بل على اساس الانصاف والصدق و بدون أيّ غرض. فعند ما نتأمل في القرآن من دون أي غرض فلا حاجة ان نحل جميع مسائله، لأن القرآن من هذه الناحية يشبه الطبيعة، فالطبيعة مليئة بالأسرار والرموز التي لم تحل الى يومنا هذا ولايمكن حلها في الظرف الراهن بسبب عدم توفر امكانيات هذا العمل، غير ان هذه المسائل ستحل في المستقبل. اضافة الى ذلك يتطلب عند دراسة الطبيعة، ان يطابق الانسان فكره مع الطبيعة على حالتها، لاان يبرر ويفسر الطبيعة حسب مايريد. والقرآن يشبه الطبيعة فهو كتاب لم ينزل لزمان واحد، وإلاّ فان جميع أسراره كانت تكشف في السابق وكان هذا الكتاب يفقد جاذبيته وطراوته وتأثيره،وكما قال النبي محمد(ص) والأئمة، عليهم السلام فانه يمكن دائما التفكر والتدبر في القرآن واكتشاف مسائل جديدة فيه. ولقد جاء في حديث للرسول الاكرم(ص): «مثل القرآن مثل الشمس

والقمر يجري مثلهما» اي انه ليس ثابتا وذا نمط واحد ولايستقر في مكان واحد. وأيضا يقول في مكان آخر:

«القرآن، ظاهره انيق و باطنه عميق».

وجاء في كتاب «عيون اخبار الرضا(ع)» نقلا عن الامام الرضا(ع) ان الامام سئل عن سر ازدياد تلاوة القرآن وازدياد طراوته كلما مرزمان عليه.

فاكد الامام بأن القرآن لم ينزل لزمان دون زمان ولناس دون ناس، ولان منزله، اي الباري تعالى، اخرجه بشكل يكون في كل زمان متقدماً على الأزمنة والأفكار برغم الفوارق المشهودة في أساليب التفكير والمعلومات و مساحة الأفكار، وفي نفس الوقت يحتوي في كل مرحلة على عدة مجاهيل لقرائه، ثم انه يقدم معاني كثيرة ومفاهيم قابلة للادراك والاستناد ليشبع الظرف الزمني.

الفصل الاول

المعرفة التحليلية للقرآن

نـنـوي في هـذا الـفصل، دراسة محـتـو يـات الـقـرآن. والجدير بالذكـر أننا لـو اردنـا التطرق الى جميع مواضيـع القرآن فـان الأمر سيستغرق وقتا طويلا، وعلى هذا الأساس فاننا سنتناول العناوين العامة ثم نتطرق الى جزئياتها.

يـتـحدث القـرآن عـن مسائل جمة و يـؤكـد على بعض المسائل بدرجة كبيـرة وعلى مسائـل أخرى بدرجة أقل. ومـن جملـة المسائل التي يتطرق اليها القرآن، مسـألـة الكون وخالقه. يجـب ان نـعرف ماهوفهم القرآن لله؟

هل هذا الفهم، فلسفي أم عرفاني؟

وهل ان القرآن بمسـتوى الكـتـب الدينية الأخرى مـثل التوراة والانجيل أم انه يشبه الرسـالات الهندية؟ أم أن له أسلوبـاً مستقلاً في معرفة الله؟

والمسألة الأخرى المطروحة في القرآن هي مسألة الكون حيث يلزم تحليل نظرة القرآن حول الكون وهل يعتبر خلق الخلق والكون عبثاً ولعـباً أم يعتبر خلـقهما حقا؟ وهل يـعتبر سير الكون مبـنيا على

سلسلة من السنن والنواميس ام يعتبره شاذاً فلا يشكل أي شي ء شرطاً لشي ء آخر؟

ومن جملة المسائل العامة المطروحة في القرآن، مسألة الانسان حيث يتطلب تحليل نظرة القرآن حول الانسان. هل يتحدث عنه بتفاؤل أم ان نظرته تجاهه سلبيه وغير متفائلة؟ وهل يعتبر الانسان حقيراً أو يقيم له كرامة وعزة؟

والمسألة الأخرى، مسألة المجتمع الانساني، هل ان القرآن يقيم للمجتمع الانساني شخصية وأصالة أم انه يعتبر الفرد أصلا فقط؟ وهل للمجتمع بنظر القرآن، حياة وموت وتطور وانحطاط أم ان جميع هذه الصفات تختص بالفرد فقط؟ و تطرح في هذا المجال مسألة التاريخ و ماهي نظرة القرآن للتاريخ؟ وماهي بنظر القرآن القوى المحركة للتاريخ و نسبة تأثير الفرد فيه؟

ويطرح القرآن مسائل جمة من جملتها رأي القرآن في نفسه، ثم مسألة النبي في القرآن، وكيف يعرفه وكيف يتحدث اليه. والمسألة الأخرى تعريف المؤمن في القرآن وصفات المؤمنين و... الخ. كل واحدة من هذه المسائل العامة لها تشعبات و فروع. فعلى سبيل المثال عندما ندرس الانسان يلزم بالطبع التحدث عن اخلاقه، او عندما نتحدث عن المجتمع نرى انفسنا ملزمين بالتحدث عن علاقات الأفراد و مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و مسألة الطبقات الاجتماعية و... ومسائل أخرى.

كيف يعرف القرآن نفسه

من الأفضل عند تحليلنا لفحوى القرآن أن نبدأ بمعرفة رأي القرآن بنفسه و كيف يعرفها.

اول مايقوله القرآن عن نفسه هو ان هذه الكلمات والعبارات هي كلام الله ويؤكد ان النبي لم يكتب القرآن بل انه يبين مانزل عليه باذن الله من روح القدس أو جبرئيل.

اما التوضيح الآخر الذي يعطيه القرآن عن نفسه فيتمثل بتعريف رسالته التي هي عبارة عن هداية ابناء البشر وارشادهم للخروج من الظلمات الى النور:

«كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور..».

(ابراهيم / ١)

ومما لاشك فيه ان الجهالة هي واحدة من مصاديق هذه الظلمات، والقرآن يخرج البشر من هذه الظلمات الى النور. أما لو كانت الظلمات تتمثل بالجهالة فقط لكان الفلاسفة قادرين على القيام بهذه المهمة غير ان هناك ظلمات أخرى اخطر من الجهالة حيث يعجز العلم عن مكافحتها ومن جملتها الجشع والغرور وحب النفس و.. الخ التي تعد من الظلمات الفردية والأخلاقية، والظلمات الاجتماعية ايضا كالظلم والتفرقة.. الخ. ان كلمة الظلم التي تقابلها بالفارسية كلمة «سِتَمْ» مأخوذة من كلمة

الظلمة التي تعني نوعا من الظلم الاجتماعي والمعنوي. ومكافحة هذه الظلمات تكون على عاتق القرآن والكتب السماوية الأخرى، فالقرآن يخاطب موسى بن عمران قائلا:

«... ان اخرج قومك من الظلمات الى النور»

(ابراهيم / ٥)

وهذه الظلمات هي استبداد فرعون و اعوانه بينما النور هو نور الحرية والعدالة.

والملاحظة التي أكد عليها المفسرون هي ان القرآن يذكر الظلمات بالجمع مع الألف واللام لتعبرعن الاستغراق و تشمل جميع الظلمات في حين يذكر كلمة النور بالمفرد باعتبار ان طريق الحق واحد لاغير بينما الانحراف والضلالة لهما طرق متعددة[٩].

وبذلك يحدد القرآن هدفه؛ تحطيم قيود الجهل والضلالة والظلم والفساد الأخلاقي والاجتماعي وبتعبير آخر، ازالة الظلمات ومن ثم الارشاد نحو العدالة والخير والنور.

فهم لغة القرآن

المسألة الأخرى، مسألة فهم القرآن و تلاوته. يتصور البعض ان المقصود من تلاوة القرآن هو قراءة القرآن بهدف الحصول على الثواب من دون فهم أي شيء من معنى الآيات. هؤلاء يختمون القرآن على الدوام أما اذا سئلوا عما اذا كانوا يفهمون مايقرأونه

فانهم يعجزون عن الاجابة. ان قراءة القرآن لازمة وضرورية باعتبارها بداية لفهم معاني القرآن لاان تأتي بهدف الحصول على الثواب.

وفهم معاني القرآن، هو الآخر له خصائصه حيث يتطلب أخذها بنظر الاعتبار وعند مطالعة الكتب يحصل القارئ على سلسلة من الأفكار الجديدة التي لم تكن موجودة في ذهنه أبداً. وهنا فان عقل وقوة تفكير القارئ هما فقط اللذان يقومان بالفعالية. وفيما يتعلق بالقرآن، يتوجب مطالعته بهدف التعلم والتعليم يقول القرآن في هذا الصدد:

«كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدَّبَّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب».

(ص / ٢٩)

للقرآن وظائف من جملتها التعليم ومن هذه الناحية فان مخاطب القرآن هو العقل حيث يتحدث معه بلغة المنطق والاستدلال. واضافة الى هذه اللغة فان القرآن يملك لغة أخرى لا يتحدث بها مع العقل بل مع القلب وتسمى هذه اللغة بالاحساس ومن يرد ان يتعرف على القرآن ويستأنس به يجب ان يكون ملما بهاتين اللغتين و يستفيد منهما في آن واحد لان فصلهما عن بعضهما يوقع الانسان في الخطأ ويضره.

ان مانسميه عقلا، عبارة عن احساس كبير و عميق يشعر به

الإنسان في داخله ويسمى احيانا بـ«احساس الوجود» أي الاحساس بارتباط الانسان بالوجود المطلق.

ومن يعرف لغة القلب ويخاطب الانسان بها، يحركه من اعماق الوجود عندها لن يتأثر الفكر والعقل فحسب بل ان جميع وجود الانسان سيكون متأثراً. وعلى سبيل المثال ان جميع انواع الموسيقى لها تأثير مباشر على عواطف الانسان، فالموسيقى تثير روحه وتدخله في عالم خاص من الاحساس. وبالطبع يتباين نوع الا ثارة والاحساس المتولد، من موسيقى الى اخرى. فمثلا يحتمل ان يكون نوع من الموسيقى مرتبطا باحساس الشجاعة والبسالة. اذن فهي تتحدث مع الانسان بهذه اللغة. انكم تلاحظون في ساحات الحرب انهم يعزفون الألحان والأناشيد العسكرية ففي بعض الأحيان يكون تأثير هذه الأناشيد أو الالحان قويا الى درجة يشجع الجندي الذي لايخرج من موضعه ــ خوفا من العدو ــ على ان يخرج من ذلك الموضع ويتقدم نحو العدو ليحاربه. أما النوع الآخر من الموسيقى فيحتمل ان يكون مختصا بحس الشهوة ومثل هذه الموسيقى تأخذ بيد الانسان نحو الابتذال والسقوط والانحطاط. ويلاحظ ان مثل هذا النوع من الموسيقى له تأثير كبير ويحتمل ان لايكون بمستطاع أي شيء آخر أن يؤثر بهذه الدرجة في تحطيم جدران الكرامة والأخلاق.

وفيما يتعلق بسائر الغرائز والأحاسيس أيضا، يمكن عند

التحدث بهذه اللغة بواسطة الموسيقى أو بأية وسيلة أخرى، السيطرة عليها تماما.

ومن أروع غرائز وأحاسيس الانسان، الحس الديني وفطرة الاتجاه الى الله، والقرآن يهتم بهذا الحس العظيم والشريف[١٠].

القرآن يوصي بتلاوته بلحن لطيف وجميل وهو يتحدث مع فطرة الانسان الإلهية بهذه النغمة السماوية[١١]. ثم انه يستعمل لغتين لوصف نفسه: ففي بعض الأحيان يعتبر نفسه كتاب التفكر والمنطق والاستدلال، وفي أحيان أخرى كتاب الاحساس والحب، وبتعبير آخر ان القرآن ليس غذاء العقل والفكر فحسب وانما غذاء الروح ايضا.

يؤكد القرآن بدرجة كبيرة على موسيقيته الخاصة، تلك الموسيقى التي تؤثر اكثر من أية موسيقى أخرى في إثارة أحاسيس الانسان العميقة والنبيلة، ويأمر المؤمنين ان يقضوا بعض الليل في تلاوته ويقرأوه في صلاتهم عند توجههم الى الله.

يقول القرآن مخاطباً النبي(ص):

«يا أيها المزّمّل، قم الليل إلاّ قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً، أوزد عليه ورتّل القرآن ترتيلا».

«المزمل /١ــ٤»

والترتيل، يعني قراءة القرآن لكن ليس بسرعة بحيث لايتم فهم الكلمات، او ببطء، بحيث تنعدم الصلة بين العبارات. يقول

اقرأوا القرآن بتأن مع فهم الآيات، ويقول في الآيات اللاحقة:

«... فاقرأوا ماتيسر من القرآن علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ماتيسر منه واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة واقرضوا الله قرضا حسنا».

«المزمل / ٢٠»

لقد كانت موسيقى القرآن عند المسلمين، تبعث على النشاط واكتساب القدرة الروحية والاخلاص والصفاء الباطني، وان نداء القرآن السماوي جعل ــ في اقل مدة ــ من سكان شبه الجزيرة العربية المتوحشين، مؤمنين صامدين استطاعوا ان يتحدوا أكبر قوى عصرهم ويقضوا عليها. وكان المسلمون لاينظرون الى القرآن ككتاب دراسي وتعليمي فقط، بل كغذاء روحي ومصدر لكسب القوة وازدياد الايمان. كانوا في الليل يقرأون القرآن باخلاص[١٢] ويبتهلون الى الله، وكانوا في النهار يشنون ــ مثل الأسود ــ هجماتهم على العدو. فالقرآن كان يتوقع هذا الشيء من المؤمنين، ويقول مخاطباً النبي:

«ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً»

(الفرقان / ٥٢)

وحياة النبي(ص) مصداق لهذا الكلام. انه انتفض وحده من دون حماية ممسكاً القرآن بيده، لكن هذا القرآن أصبح كل شيء

له، كان يعد له الجنود والأسلحة والقوة ويجبر العدو أن يخضع ويستسلم له، وكان كذلك يجر افراد العدو نحو النبي ويجبرهم على الاستسلام له، وبذلك كان ينفذ وعود الله الصادقة[١٣].

عندما يصف القرآن لغته، بلغة القلب فهو يقصد بهذا الكلام، ذلك القلب الذي يعتزم صقله وتنقيته واثارته بآياته. هذه اللغة هي غير لغة الموسيقى التي تغذي الشهوات الانسانية احيانا، وغير لغة الألحان العسكرية والأناشيد الحربية التي تعزف لتقوية روح البسالة، بل هي تلك اللغة التي تصنع من الاعراب البدو، مجاهدين قيل في حقهم: حملوا بصائرهم على أسيافهم. هؤلاء كانوا لايفكرون بالمسائل الفردية والمصالح الشخصية ومع أنهم لم يكونوا معصومين ويقعون في الأخطاء، فقد كانوا من جملة الذين يقال في حق كل منهم: «قائم الليل وصائم النهار». كانوا في جميع اللحظات على ارتباط بالوجود حيث كانوا يؤدون الفرائض الدينية في الليل ويجاهدون في النهار[١٤].

ويؤكد القرآن على خاصيته هذه وهي انه كتاب القلب والروح، كتاب يهز النفوس ويجري الدموع. هذا الأمر ينطبق على أهل الكتاب أيضا:

«الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، واذا يتلى عليهم قالو آمنا به انه الحق من ربنا...»

(القصص / ٥٢ــ٥٣)

ويؤكد ايضا في آية أخرى ان بعض أهل الكتاب، أي المسيحيين هم أقرب الى المسلمين من اليهود والمشركين[١٥]. ثم يصف النصارى الذين يؤمنون حال سماعهم القرآن بقوله:

«واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين».

(المائدة / ٨٣)

وعندما يتحدث في مكان آخر، عن المؤمنين بالذات يصفهم بقوله:

«الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله».

(الزمر / ٢٣)

يبين القرآن في هذه الآيات الأخرى انه ليس كتابا علميا و تحليليا فحسب، بل انه في نفس الوقت الذي يستخدم فيه المنطق والاستدلال، يتحدث الى أحاسيس وأذواق ولطائف أرواح البشر ويجعلها تتأثر.

الذين يخاطبهم القرآن

من جملة المسائل التي يجب استنباطها من القرآن عند المعرفة التحليلية، تعيين و تحديد الذين يخاطبهم القرآن. لقد تكررت كثيراً في القرآن عبارات مثل «هدىً للمتقين، هدىً و بشرى

للمؤمنين، لينذر من كان حيّاً» وهنا يمكن ان نسأل ما هي ضرورة ذكر الهداية للمتقين مع أنهم متقون؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى ان القرآن يعرف نفسه بقوله:

«إن هو إلاّ ذكر للعالمين ولتعلمنّ نبأه بعد حين»[١٦].

(ص / ٨٧ــ٨٨)

اذن، فهل هذا الكتاب لجميع العالم أم انه للمؤمنين فقط؟

وفي آية أخرى يخاطب الباري ــ سبحانه وتعالى ــ النبي قائلاً:

«وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين».

(الأنبياء / ١٠٧)

وسنعطي في موضوع «التاريخ في القرآن» توضيحاً مفصلاً عن هذه المسألة، لكن يلزم هنا القول بالاجمال، ان القرآن عندما يخاطب جميع أفراد العالم بآياته يريد ان يقول انه ليس ملكا لقوم أو جماعة معينة. ومن يتجه نحو القرآن يلقَ النجاة. أما في الآيات التي يصف القرآن نفسه فيها انه كتاب هداية للمؤمنين والمتقين، فانه يريد ان يقول من هم الذين سيتوجهون في النهاية نحو القرآن وما هي الفئات التي ستبتعد عنه. والقرآن لايتحدث عن قوم او قبيلة معينة بمثابة محبيه او مؤيديه، لايقول انه ملك لهؤلاء القوم أو أولئك، فالقرآن خلافا لجميع المذاهب والأديان الأخرى لايؤكد مطلقا على مصالح طبقة خاصة، وعلى سبيل المثال؛ لايقول انه

جاء لضمان مصالح الطبقة الفلانية فقط. وايضا لايقول ان هدفه الوحيد يتمثل في الدفاع عن الطبقة العاملة أو طبقة الفلاحين. وحول نفسه يؤكد بانه كتاب يرمي الى اقامة العدل. وفيما يتعلق بالأنبياء يقول:

«وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط».

(الحديد / ٢٥)

اذن، فالقرآن يريد القسط والعدل للمجتمع الانساني ككل وليس لهذه الطبقة أو تلك أولأولئك القوم وتلك القبيلة. وهو خلافا للعقائد الأخرى مثل النازية لايكسب الناس الى جانبه من خلال تأكيده على تعصبات هؤلاء، وكذلك ــ خلافا للفكر الماركسي ــ لايعتمد على مطامع الناس، ولايحركهم عن طريق مصالحهم[١٧]، لانه مثلما يقيم أصالة لوجدان الانسان العقلي، يقيم له أصالة وجدانية وفطرية ايضا. ويحرك الناس على أساس فطرة طلب الحق والعدل، ولهذا لاتختص رسالته بطبقة العمال أو الفلاحين او المحرومين والمستضعفين. القرآن يحث الظالم والمظلوم على الرجوع الى طريق الحق، والنبي موسى أوصل بدوره نداءالله الى بني اسرائيل والى فرعون كذلك وطلب منهم ان يؤمنوا بالله ويسيروا في طريقه. أما النبي محمد(ص) فقد عرض رسالة الله على زعماء قريش وعلى أبي ذر وعمار أيضا. ويورد القرآن نماذج متعددة من انتفاض الفرد على نفسه والعودة من طريق الضلالة

والفساد (التوبة). و بالطبع يعلم القرآن ان عودة الذين يعيشون في نعيم ورخاء أصعب بدرجات من عودة المحرومين والمستضعفين.

الفئة الثانية، تسير في طريق العدالة استناداً الى ضرورة الأمر، بينما الأولى يجب في بادئ الأمر ان تغض النظر عن المصالح الشخصية والطبقية وتدوس بأقدامها على ميولها ورغباتها.

يقول القرآن ان المتمسكين به لهم أرواح طاهرة ونقية، وهؤلاء انفتحوا على القرآن انطلاقا من فطرتهم في طلب الحقيقة والعدل التي هي فطرة كل انسان وليس بدافع من المصالح والميول المادية والدنيوية.

الفصل الثاني

العقل من وجهة نظر القرآن

تحدثنا باختصار في الفصل السابق عن لغات القرآن وقلنا ان القرآن يستخدم لغتين لابلاغ رسالته هما: الاستدلال المنطقي والاحساس. فالعقل هو لغة الاستدلال المنطقي، بينما القلب هو لغة الإحساس. وفي هذا الفصل نتطرق الى رأي القرآن حول العقل.

يجب ان نعرف هل أن العقل، من وجهة نظر القرآن، يعتبر سنداً، وعلى حد تعبير علماء الفقه والأصول، هل ان العقل حجة أم لا؟ وهذا يعني انه اذا كان استدلال ما، استدلالاً صحيحاً للعقل فهل يلزم على البشر احترامه والعمل على ضوئه أم لا؟ فاذا عملوا على ضوئه وارتكبوا الأخطاء في بعض الأمور، فهل يسامحهم الله أم يعاقبهم؟ وان لم يعملوا فهل سيعاقبهم الله بدليل ان عقولهم دعتهم الى العمل فلم يستجيبوا لها أم لايعاقبهم؟

أدلة حجية العقل

تعتبر مسألة حجية العقل من وجهة نظر القرآن، مسألة ثابتة، وان علماء الاسلام ــ ماعدا فئة قليلة ــ لم يشكوا بدورهم منذ البداية ولحد الآن في حجية العقل، بل اعتبروها جزءاً من المصادر الأربعة للفقه.

١ ـ دعوة القرآن الى التعقل

بما أننا نتحدث عن القرآن، فمن اللازم ان نستخرج الأدلة التي

تثبت حجية العقل من القرآن نفسه. فالقرآن صادق على النواحي المختلفة: فمن ناحية واحدة فقط هناك ما بين ستين الى سبعين آية قرآنية تشير الى هذه المسألة وهي: اننا طرحنا هذا الموضوع لتتعقلوا حوله.

أضرب لكم مثلاً عن تعبير رائع للقرآن فهو يقول:

«إنّ شرّ الدوابِّ عندالله الصّمّ البكم الذين لايعقلون».

(الأنفال / ٢٢)

طبيعي ان القرآن لايعني بالصم والبكم الذين يفتقرون الى اللسان وحاسة السمع بل تلك الفئة من الناس التي لا ترغب في سماع الحقيقة، او تسمعها ولا تقربها. ان الأذن العاجزة عن سماع الحقائق ومستعدة فقط لسماع الكلام التافه والعادي هي صماء من وجهة نظر القرآن. واللسان الذي يستخدم للكلام الفارغ أبكم في رأي القرآن.

اما الذين لايعقلون فهم اشخاص لايستفيدون من أفكارهم و يخاطبهم القرآن كحيوانات لأن كلمة الانسان لا تليق بهم.[١٨]

وفي آية أخرى يصرح ضمن الاشارة الى مسألة توحيدية حول التوحيد الفعلي والتوحيد الفاعلي:

«وما كان لنفسٍ ان تؤمن اِلاّ بإذن الله...».

(يونس / ١٠٠)

وبعد الاشارة الى هذه المسألة الغامضة التي يعجز أي ذهن

كان عن فهمها وادراكها والتي تثير الانسان يضيف قائلا:

«... ويجعل الرجس على الذين لايعقلون».

(يونس / ١٠٠)

في هذين المقطعين من الآية واللذين اشرت اليهما كنموذج، يدعو القرآن حسب أقوال أهل المنطق الى التعقل بوسيلة دلالة المطابقة. وهناك آيات كثيرة أخرى تؤكد مصادقة القرآن على حجية العقل بواسطة الدلالة الالتزاميه[١٩]، وبتعبير آخر يقول كلاما لايمكن قبوله مالم يتم قبول حجية العقل. مثلا يطلب من المقابل، استدلالاً عقلياً:

«قُلْ هاتوا برهانكم».

(البقرة / ١١١)

ويريد بالدلالة الالتزامية ان يوضح هذه الحقيقة وهي ان العقل سند و حجة، او انه يستخدم رسميا القياس المنطقي لإ ثبات وجود واجب الوجود:

«لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا».

(الأنبياء / ٢٢)

وهنا اوجد القرآن مسألة شرطية: يستثني المقدم ويتجاهل المؤخر. فالقرآن يرمي من خلال تأكيده الكبير على العقل ان يثبت بطلان كلام بعض الأديان الذي يقول: ان الايمان غريب على العقل ويجب منع الفكر من العمل بغية اكتساب الايمان

واستخدام القلب فقط ليدخل نورالله فيه.

٢ ـ الاستفادة من نظام السبب والمسبب

الدليل الآخر الذي يؤكـد ان القرآن يقيم أصالة للعقل، هو انه يـبين المسائل وفق نظام العلـة والمعلول. ان علاقة الـعلة بالمعلول وأصل الـعلة هما أساس التـفـكير العـقلي الـذي يحترمه القرآن ويستخدمه. وبـالرغـم من ان القـرآن حـديث الله تـعالى وان الباري سبحـانه و تعالى هو الموجد لنظام العلة والمعلول وهو حديث عن ماوراء الطبيعة الـذي لايصل نظام العلة والمعـلول الى مستواه، مع كل ذلـك فانه لا يتـغافل عـن الاشارة الى نظام العـلة والمعلول وربط الأحداث بهذا النظام.على سبيـل المثال خذوا بنظر الاعتبار الآية التالية التي تقول:

«ان الله لايغيّر مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

(الرعد / ١١)

يريد القرآن بهـذا الكـلام ان يقول: صحيـح ان جميـع المصائر بـيـدالله، لكن الله لايفرض المصير على الـبشر مـن دون اختيارهم وتصميمهـم وعملهم، ولايقوم بعمل اعتباطي ،ذلك ان المصائر لها نظـام، وان الله لايـغير مصير أي مجتـمـع كان دون سـبـب مالم يغير ذلك المجتمع مايخصه مـثل الأنظمة الاجتماعـية والأخلاقية وكل مايرتبط بوظائف كل فرد من أفراده.

هـذا من جهة ومـن جـهة أخرى يشجـع الـقرآن المسلمين على دراسة أوضاع ومصائر الأقوام السالـفة وأخذ العبرة منها. وطـبيعي أنه لوكانت مصائر الأقـوام والشعوب والأنظمة مـبنية على أساس الـعبث والصدفـة، وكـانت المصائر تـفرض من الأعلى الى الأسفل لكانـت الدراسة والعـبرة دون معنى. يريد القرآن بهـذا التأكيد ان يقول: ان أنظمة واحـدة تتحكم بمصير الأقـوام. ولذلك اذا كانت ظروف مجتـمع مشابهة لظـروف مجتمـع آخر فان مصيـرهما سيكون واحداً. ويقول القرآن في آية أخرى:

«فكأيّـن من قريـة أهـلكنـاها وهي ظـالمـة فهي خـاوية على عروشها وبئـر معطـلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها...».

(الحج / ٤٥ــ٤٦)

ان الاعتراف بالنظم بواسطـة الدلالة الالتزامية في جميع هذه المسـائـل، يصادق على نظـام العـلـة والمـعلول، كما ان الاعـتراف برابطة العلة والمعلول، يعني الاعتراف بحجية العقل.

٣ ــ فلسفة الأحكام

ومن الأدلة الأخرى التي تثبت حـجية العقـل من وجـهة نظر الـقـرآن، هـو ان الـقـرآن يشير الى الفـلسـفـة بـخصـوص الأحكام والأوامر. يقول علماء الأصول: ان المفاسد والمصالح، تدخل ضمن

نطاق أسباب الأحكام. مثلا يقول القرآن، أقيموا الصلاة بينما يشير في مكان آخر الى فلسفة الصلاة:

«ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر».

(العنكبوت / ٤٤)

يشير القرآن في الآية الآنفة الذكر الى التأثير الروحي للصلاة وكيف انها ترفع من شأن الانسان بحيث تجعله ينصرف عن الفحشاء والسيئات ويكنُّ لها الكراهية. أو يقول عندما يتطرق الى الصوم:

«كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون».

(البقرة / ١٨٣)

وكذلك الحال بالنسبة لسائر الأحكام الأخرى مثل الزكاة والجهاد و... الخ التي يوضحها من النواحي الفردية والاجتماعية. وبذلك يعطي القرآن، الأحكام السماوية، طابعاً دنيوياً وأرضياً علاوة على طابعها الميتافيزيقي. ويدعو الانسان الى التدبر فيها لتتوضح له ماهية المسائل، ولكي لايتصور أنها من جملة الرموز التي هي فوق فكر البشر.

٤ ــ الحد من أخطاء العقل

والدليل الآخر على أصالة العقل والذي يعتبر في القرآن من أوضح

الدلائل الأخرى هو مكافحة القرآن لما يقف في طريق العقل. ولتوضيح هذا الأمر أرى من الضروري توضيح بعض المسائل.

في كثير من الأحيان يقع ذهن الانسان وفكره في الخطأ. وهذا الأمر شائع بيننا. وطبيعي ان هذا لا يقتصر على العقل فقط بل ان الحواس ترتكب الأخطاء بدورها. فعلى سبيل المثال؛ ذكروا مئات الأخطاء للقوة الباصرة. وفيما يتعلق بالعقل نشاهد في كثير من الأحيان ان الانسان يستدل ويستنتج على ضوء ذلك الاستدلال ثم يلاحظ ان استدلاله لم يكن صحيحا من الأساس. وهنا يطرح السؤال التالي نفسه، هل يلزم في بعض الأحيان منع قوة التفكير من العمل بسبب أخطاء الذهن أم يلزم استخدام بعض الوسائل لكشف أخطاء الذهن والحد منها؟

كان السفسطائيون يجيبون عن هذا السؤال بقولهم: لا يجوز الاعتماد على العقل، ثم ان الاستدلال ليس إلاّ عملاً لغوياً. غير ان الفلاسفة أعطوا اجابات قاطعة في هذا المجال للسفسطائيين من جملتها ان سائر الحواس الأخرى تقع في الخطأ مثل العقل لكن ليس هناك من يأمر باهمالها وعدم الاستفادة منها. ولما كان اهمال العقل ليس بالمقدور، اضطر المفكرون الى ان يسدوا طريق الخطأ. وعند دراسة هذه المسألة تبين لهم ان كل استدلال يتكون من شطرين هما: المادة، والصورة. بالضبط مثل أي بناء ما، حيث ان المواد المستعملة فيه مثل الاسمنت والحديد و... الخ

تمثل المادة لاقامة شكل خاص يطلق عليه اسم الصورة. ولكي يقام البناء بشكل جيد من جميع النواحي، يلزم استخدام المواد اللازمة واعداد خارطة صحيحة وكاملة، وكذلك يلزم عند القيام بالاستدلال من أجل ضمان صحة العمل، التأكد من صحة المادة والصورة. لقد ظهر المنطق الأرسطوي او المنطق الصوري، لاجراء دراسة حول صورة الاستدلال. فوظيفة المنطق الصوري تنحصر في تحديد خطأ صورة الاستدلال أو صحتها، ومساعدة الذهن كي لايقع في الخطأ في صورة الاستدلال[٢٠].

اما المسألة المهمة فهي ان المنطق الصوري ليس كافيا لضمان صحة الاستدلال لانه يقوم بالضمان من ناحية واحدة. وللتأكد من صحة مادة الاستدلال، فاننا بحاجة الى منطق المادة، أي اننا بحاجة الى معيار نستطيع بواسطته تقييم كيفية المواد الفكرية.

حاول العلماء (أمثال بيكن وديكارت) ان يجدوا منطقا لمادة الاستدلال يشبه منطق أرسطو الذي أوجده لصورة الاستدلال واستطاعوا الى حدما ان يوجدوا معايير في هذا المجال. ومع أنها لم تكن مثل منطق أرسطو من الناحية العامة لكنها كانت تساعد الانسان على عدم الوقوع في الخطأ عند الاستدلال. وقد تعجبون اذا ماعلمتم ان القرآن قدم مسائل جمة حول الاستدلال بغية الحد من الوقوع في الأخطاء، حيث تُفضَّل على تحقيقات بعض العلماء

أمثال ديكارت و تتقدم عليها.

مصادر الخطأ من وجهة نظر القرآن

من المصادر التي يذكرها القرآن لنشوء الخطأ، هو استخدام الناس الظن بدلاً من اليقين[٢١] ولو اتبع الناس اليقين في المسائل ولم يقبلوا الظن لما وقعوا في الأخطاء[٢٢]. القرآن يؤكد على هذه المسألة بدرجة كبيرة، حتى انه يصرح في احدى الآيات ان أكبر خطأ فكري للناس هو الظن، أو يقول في آية أخرى مخاطباً النبي:

«وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون إلاّ الظن و ان هم إلاّ يخرصون..».

(الأنعام / ١١٦)

أو انه يقول في آية أخرى:

«ولا تقف ما ليس لك به علم».

(الإسراء / ٣٦)

وهذا التحذير يعتبر الأول من نوعه الذي أعطاه القرآن للبشر خلال تاريخ الفكر البشري، ونهاهم فيه عن ارتكاب مثل هذه الأخطاء.

أما المصدر الثاني لنشوء الخطأ في مادة الاستدلال الذي يطرح بشكل خاص في المسائل الاجتماعية، فهو مسألة التقليد، حيث

ان أكثر الناس يعتقدون بمايعتقد به المجتمع، أي أنهم يقبلون مايقبله المجتمع أو ما قبلته الأجيال السالفة بدليل ان تلك الأجيال قبلت ذلك[٢٣] بينما يقول القرآن: أدرسوا كل مسألة بمعيار العقل وليس لكم ان تتقبّلوا مافعله أجدادكم كسند أو ترفضوه أساساً فهناك مسائل طرحت في الماضي وكانت خطأ منذ الأساس، غير ان الناس وافقوا عليها، وهناك مسائل صحيحة أخرى طرحت في الأزمنة البعيدة لكن الناس رفضوها بسبب جهلهم. لذلك يلزم استخدام العقل والفكر عند تقييم هذه المسائل وعدم تقليدها بشكل أعمى، فالقرآن يضع في كثير من الأحيان مسألة تقليد الآباء والآجداد أمام العقل والفكر:

«واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ماألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولايهتدون»

(البقرة / ١٧٠)

يؤكد القرآن ان قدم الفكرة ليس دليلا على خطئها ولا على صوابها. فالقدم يدخل في الأمور المادية، غير ان حقائق الوجود لايؤثر عليها الزمن ولا تزول كلما تقدم بها، بالضبط مثل هذه الحقيقة التي تبقى ثابتة «ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». ويؤكد القرآن كذلك على ضرورة استخدام العقل والفكر لمواجهة المسائل، أي لايجوز إهمال عقيدة ما بدليل ان البقية يطعنون في الانسان بسببها، كما لايجوز إهمال عقيدة ما

بدليل تعلقها بهذه الشخصية المعروفة أو تلك، حيث يتطلب الأمر من الانسان ان يدرس جميع المسائل بنفسه[٢٤].

والعامل الآخر الذي يساعد على نشوء الخطأ والذي يتحدث القرآن عنه كثيراً هو اتباع أهواء النفس والرغبات النفسية وامتلاك الغرض. وعلى حد قول الشاعر الايراني مولوي:

عندما حلّ الهوى لم يبد للفن شهاب
ستر القلب اذن ألفُ حجاب

واذا لم يتخل الانسان في كل مسألة عن الأغراض الشريرة فلن يستطيع التفكير بشكل سليم، أي ان العقل لن يستطيع ان يعمل بشكل صحيح مالم يكن المحيط مجرداً من أهواء النفس.

هناك رواية معروفة عن العلامة الحلي تقول:

كان العلامة الحلي يفكر في هذه المسألة الفقهية وهي اذا مات حيوان في بئر وبقي فيها، فما العمل الذي يجب القيام به بالنسبة لتلك البئر؟

في هذه الأثناء وقع حيوان من باب الصدفة في بئر منزل العلامة الحلي فاضطر الحلي الى التفكير في مايلزم اتخاذه. لم يكن هناك سوى حلين، الأول: دفن البئر والاستفادة من بئر أخرى، والثاني: سحب كمية قليلة من ماء البئر والاستفادة من البقية، لكن العلامة شعر انه لايستطيع الحكم في هذه المسألة بشكل مجرد

من المصلحة الشخصية، ذلك ان مصالحه كانت مطروحة ايضا في هذه المسألة. لذلك فان أول ماقام به هو انه أمر بدفن البئر ثم تفرغ لإصدار الحكم والفتوى براحة بال ومن دون ضغط أهواء النفس. والقرآن يتحدث في آيات كثيرة حول اتباع أهواء النفس نكتفي بذكر واحدة منها. يقول القرآن:

«ان يتبعون إلاّ الظن وما تهوى الأَنفُس».

(النجم / ٢٣)

الفصل الثالث

نظرة القرآن للقلب

لاأعتقد انه هناك حاجة لتوضيح هذه المسألة وهي ان المقصود من القلب في التعبير العرفاني والأدبي، ليس ذلك العضو اللحمي الذي يقع في القسم الأيسر من الجسم والذي يقوم ــ مثل المضخة ــ بضخ الدم الى الاوردة والشرايين. على سبيل المثال يقول القرآن في الآية التالية:

«إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب».

(ق / ٣٧)

أو كما في هذا التعبير العرفاني اللطيف للشاعر الايراني حافظ

أنا في غفلة وقلبي جموح
أفلت الصيد دواهوى والطموح

والواضح ان المقصود من القلب، حقيقة متعالية وممتازة تتباين كليا مع هذا العضو من الجسم، ومثلما يشير القرآن الى أمراض القلب قائلا:

«في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً».

(البقرة / ١٠)

فان طبيب الأمراض القلبية غير قادر على معالجة هذا المرض. واذا استطاع طبيب ما أن يعالج مثل هذه الأمراض فهو بدون شك متخصص في الأمراض الروحية.

تعريف القلب

اذن فما هو المقصود بالقلب؟

الإجابة عن هذا السؤال، تكمن في حقيقة وجود الانسان، فالانسان علاوة على كونه موجوداً واحداً، له مئات وآلاف الأبعاد. و «النفس» الانسانية عبارة عن مجموعة كبيرة من الأفكار، والأحكام، والمخاوف، والآمال، والحب و... جميع هذه الأشياء تلتقي في نقطة واحدة مثل الجداول والأنهار. ومثل هذه النقطة تعتبر بحراً عميقاً بحيث ان أي انسان واع لم يدَّعِ لحد الآن معرفته بأعماق ذلك البحر. والعرفاء والفلاسفة وعلماء النفس تعمقوا في هذا البحر واستطاع كل واحد منهم ان يكتشف أسراره الى حدما. ويحتمل ان يكون نجاح العرفاء اكثر من غيرهم في هذا المجال. ان ما يسميه القرآن بالقلب، عبارة عن حقيقة ذلك

البحر، حيث ان مانسميها بالروح الظاهرية ليست إلاّ جداول وأنهاراً تصب في هذا البحر. حتى ان القلب يشكل بدوره نهراً يصب في هذا البحر.

وعندما يتحدث القرآن عن الوحي، فانه لايتحدث عن العقل مطلقاً،ذلك ان حديثه ينحصر عن قلب الرسول(ص) فقط، بتعبير آخر، القرآن لم يخلق بقوة عقل النبي واستدلاله العقلي بل ان قلب الرسول(ص) هوالذي وصل الى حالة غير قابلة للتصور بالنسبة لنا بحيث حصل في تلك الحالة على استعداد لإدراك ورؤية تلك الحقائق المتعالية.

وتبين آيات سورتي النجم والتكوير الى حد ما، كيفية هذا الارتباط[٢٦].

عندما يتحدث القرآن عن الوحي والقلب فان بيانه يتجاوز العقل والفكر لكنه ليس ضدهما. وفي هذا المجال يبين القرآن نظرة أكبر من العقل والإحساس بحيث ان العقل لايدخلها أساساً ويعجز عن ادراكها.

خصائص القلب

يشكل القلب ــ في نظر القرآن ــ آلة للمعرفة أيضا، حيث ان الجزء الأكبر من حديث القرآن يخاطب قلب الانسان. حديث لا تستطيع أية أذن سماعه سوى أذن القلب وعلى هذا الأساس يؤكد القرآن كثيراً على حفظ وحراسة وتكامل هذه الآلة. ونرى في

القرآن آيات كثيرة تتحدث عن تزكية النفس ونور القلب وصفائه:

«قد أفلح من زكيٰها».

(الشمس / ٩)

«كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون».

(المطففين / ١٤)

وحول نور القلب يقول القرآن:

«ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً».

(الأنفال / ٢٩)

أو يقول في آية أخرى:

«والذين جاهدوا فينا لنَهدينَّهم سبلنا».

(العنكبوت / ٦٩)

ويتحدث القرآن كثيراً عن هذه الأعمال غير المرغوب فيها التي يقوم بها الانسان والتي تمرض روحه وتأخذ منها الجذب والميول الطاهرة. فهو يقول على لسان المؤمنين:

«ربنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتَنا».

(آل عمران / ٨)

ويقول:

«كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون».

(المطففين / ١٤)

«فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم».

(الصف / ٥)

«ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة».

(البقرة / ٧)

«وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقَهوهُ».

(الانعام / ٢٥)

«كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين».

(الاعراف / ١٠١)

«فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون».

(الحديد / ١٦)

وجميع هذه التأكيدات تبين ان القرآن يقيم جواً روحياً ومعنوياً رفيعاً للانسان، ويرى من الضروري ان يحافظ الانسان على هذا الجو النزيه والسليم. وبالرغم من ان محاولات الانسان في الأجواء الاجتماعية غير النزيهة تبقى فاشلة ودون جدوى، إلاّ ان القرآن يؤكد على ان الانسان يجب ان يسعى لتطهير وتزكية محيطه الاجتماعي. ويؤكد القرآن كذلك ان الحب والايمان والأفكار والميول المتعالية وتأثيرات القرآن ونصائحه و. و. كل هذه الأشياء تتوقف على ان يبقى الانسان والمجتمع الانساني بعيدين عن الرذالة والدناءة وحب الأهواء والشهوات.

ويوضح التاريخ انه كلما ارادت السلطات الحاكمة السيطرة على مجتمع ما واستثماره، فانها تحاول افساد روح ذلك المجتمع. ولكي تحقق هدفها هذا، توفر للناس التسهيلات اللازمة من أجل تحقيق شهواتهم وتشجعهم على الشهوة. ومن جملة هذه الأساليب القذرة التي أصبحت درساً: الكارثة التي وقعت في اسبانيا المسلمة ـ التي كانت تعتبر من المصادر المهمة للنهضة ومن أفضل الحضارات الأوروبية ـ لقد أفسد المسيحيون روح وأخلاق الشباب المسلم بغية انتزاع اسبانيا من قبضة المسلمين، حيث وضعوا الى الحد الذي قدروا عليه، وسائل اللعب واللهو والشهوة في اختيار المسلمين، وتقدموا في هذا الأمر الى حد خدعوا فيه الحكام والمسؤولين، ولوثوهم به. وبهذا تمكنوا من القضاء على عزيمة المسلمين وارادتهم وشجاعتهم وايمانهم وطهارة روحهم وتبديلهم الى اناس ضعفاء منحطين، يفكرون في الشهوة، مدمنين على شرب الخمور. وطبيعي ان دحر مثل هؤلاء الناس ليس بالأمر الصعب، فلقد انتقم المسيحيون من حكومة المسلمين التي دامت ٣٠٠ ـ ٤٠٠ سنة بشكل يخجل التاريخ نفسه من الاشارة الى تلك الجرائم. لقد صنع هؤلاء المسيحيون ـ الذين يلزم عليهم طبقا لتعليمات المسيح ان يقدموا خدهم الأيسر اذا صفع خدهم الأيمن ـ بحراً من دماء المسلمين في الاندلس و بلغوا بأعمالهم تلك مستوى جنكيز. ولاننسى ان اندحار المسلمين جاء نتيجة

لانحطاطهم وفساد ارواحهم وعقابا لهم بسبب عدم التزامهم بأحكام الاسلام وتعاليمه.

وفي عصرنا الراهن يحاول الاستعمار ـ اينما وضع أقدامه ـ التأكيد على تلك المسألة التي يحذر القرآن منها، أي انه يسعى الى إفساد القلوب فاذا فسد القلب لم يعجز العقل عن عمل أي شيء فحسب بل يصبح هو الآخر قيداً في يد الانسان و عنقه لذلك نلاحظ ان المستعمرين والمستثمرين لا يخشون فتح المدارس والجامعات، بل يساعدون بأنفسهم على تأسيسها، لكنهم من جهة ثانية يبذلون ما بوسعهم لافساد قلوب و أرواح طلبة المدارس والجامعات. انهم يدركون حقيقة ان الروح المريضة غير قادرة على انجاز أي شيء وتستسلم لكل رذيلة واستغلال واستثمار.

ويولي القرآن أهمية بالغة لتعالي ونزاهة روح المجتمع، حيث يقول في احدى آياته:

«وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»

(المائدة / ٢)

وحول القلب أورد لكم أقوالاً عن النبي والأئمة ليختم هذا الموضوع على أحسن وجه.

جاء في كتب السيرة ان رجلاً دخل في أحد الأيام على الرسول الاكرم(ص) وطلب ان يطرح بعض الأسئلة فسأله النبي(ص) عما اذا كان يريد سماع الإجابة أم يرغب في السؤال

أولاً؟ فقال له الرجل تفضل بالاجابة فاخبره النبي(ص) بانه جاء يسأل عن معنى البِرّ والتقوى والإثم والعدوان، فاجابه الرجل، نعم ان هذا هو سؤالي وحينئذ جمع النبي(ص) ثلاثة أصابع وضرب بها صدر الرجل قائلاً له اسأل نفسك عن هذا الأمر، ثم أخبره بأن قلب الانسان صنع بشكل يرتبط بالحسنات فيهدأ معها، لكن السيئات والقبائح تزعجه وتجعله مضطرباً، بالضبط مثل جسم الانسان الذي اذا دخله شيء لايتجانس معه فانه يؤثر على انتظامه ويخل بعمل أعضائه المختلفة وان روح الانسان تنزعج وتختل بدورها على أثر الأعمال السيئة. ومايسمى عندنا بعذاب الوجدان ينشأ من عدم تجانس الروح مع القبائح والسيئات.

استفت قلبك وان افتاك المفتون

صب الشاعر الايراني مولوي هذا القول في شعر يقول في أحد أبياته.

ما ترجمته: ٢٧

«إستفتِ قلبكَ» هكذا قال الرسول
فهو المدار وماعدا ذاك الفضول

يؤكد النبي ان الانسان اذا كان يطلب الحقيقة بشكل محايدٍ ومخلص فان قلبه سوف لن يخونه مطلقا بل سيهديه الى الطريق

الصحيح. وطبيعي ان الانسان الذي يبحث بصدق عن الحق والحقيقة ويخطو في طريق الحق فانه يصل اليها. وعندما ينجر الانسان الى الضلالة فان السبب يكمن في انه اتخذ منذ البداية موقفاً خاطئاً ولم يكن يبحث عن حقيقة خالصة. لقد أجاب الرسول(ص) عن سؤال شخص سأله عن معنى البر موضحا له مامضمونه: انه لوكان يبحث عن البرحقا فمتى ماهدأ قلبه فليطمئن الى ان ذلك هو الاثم.

وفي مكان آخر يسألون النبي(ص) عن معنى الايمان فيرد عليهم بان شعور الانسان بعدم الارتياح والندم عند الاثم وبالسعادة عند العمل الحسن هو الايمان.

وينقل عن الامام الصادق(ع) انه عندما يتحرر الانسان من مشكلة حب الدنيا فانه يشعر في قلبه بحلاوة حب الله. وفي مثل هذه الحالة تبدو له الأرض وكأنها غير الأرض ويرغب بكامل وجوده ان يتحرر من عالم المادة هذا وينفذ الى الخارج. وهذه حقيقة اثبت صحتها أولياء الله ورجاله من خلال حياتهم. لقد جاء في تاريخ حياة النبي(ص) انه توجه في أحد الأيام بعد صلاة الصبح الى أصحاب الصفة الذين كانوا أناساً فقراء لايملكون من مال الدنيا شيئا ويعيشون في المدينة الى جوار مسجد النبي(ص) في هذه الأثناء وقع نظر النبي(ص) على شخص من هؤلاء يدعى زيداًأو حارث بن زيد وكان منهوك القوى و عيناه غائرتان في محجريها.

فسأله النبي عن حاله فأجابه بأنه أصبح من أهل اليقين. وعندما طلب منه علامة ذلك، اكد بان علامة يقينه هي انه لاينام الليل ويصوم كل النهار ويقضي الليل في العبادة. فاستزاده النبي(ص) فاستمر ذلك الشخص باحصاء سائر العلامات موضحاً بانه الآن في حال يشعر معها وكأنه يرى أهل الجنة والنار ويسمع أصواتهم وانه مستعد للافصاح عما يوجد في باطن أصحاب النبي(ص) اذا اذن له. فلم يأذن له. وانما سأله عن رغبته فأكد انها الجهاد في سبيل الله[٢٨].

وان تعليمات القرآن تؤكد على ان صقل القلب يرفع من شأن الانسان، وعلي أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا». ان مايؤكد القرآن عليه في تعليماته هو تربية الأشخاص الذين يملكون سلاح العلم والعقل ويستخدمون القلب في طريق الحق بأسلوب أفضل.

الهوامش

(١) ان مسألة في أي مجال حصل ذلك التأثير، هل غيّر مسير التاريخ من جهة سعادة ورفاه البشرية أو من جهة النقص والانحطاط؟ وهل حصل تغيّر وحركة في التاريخ بسبب تأثير هذا الكتاب و تدفق دم جديد في شرايين المجتمعات البشرية أو بالعكس؟ هي مسألة خارجة عن نطاق بحثنا الراهن.

(٢) شاعران ايرانيان.

(٣) يحتمل ان يكون حافظ اديبا وليس مفكرا او عالما ويحتمل ان يكون اديبا ومفكرا و عالما في نفس الوقت. وبالطبع فان حافظا كان يعتبر عالما قبل ان يكون شاعرا وكان على علم بكتب وافكار الآخرين سواء الشعراء والأدباء أو المفسرون والفقهاء وخاصة العرفاء منهم و تعرف على بعض آثار هؤلاء أو اكثرها بواسطة اساتذته. واليوم ينظرون الى حافظ من زاويته الشعرية ولايعتبره احد من العلماء بينما كان عالما في زمانه ويكتب الشعر احيانا. ولقد اوردت الكتب التي كتبت في ذلك الزمان اسم حافظ ومنحته القابا جمة تجمع اكثرها على ان حافظا عالم اكثر مما هو شاعر. والسؤال المطروح حول هذا الرجل العالم الذي كان على معرفة بثقافة زمانه و كانت له معلومات كثيرة حول العرفان والسير والسلوك المعنويين، ووصف السلوك العرفاني بلغة الشعر أفضل من أي شاعر آخر، هل كان حافظ متأثرا بشيء عند عرضه لهذه الأفكار أم انه ابتكرها بنفسه؟ وهل على سبيل المثال كان لمحيي الدين الاندلسي ــ الذي يعتبر أبا للعرفان الاسلامي ــ تأثير على حافظ؟ هل ان ابن الفارض المصري الذي كان يعيش قبل حافظ وله منزلته في الأدب العرفاني للعرب مثل منزلة حافظ في الأدب الفارسي، لم يكن له تأثير على نمو أفكار حافظ؟ الاجابة عن هذه الأسئلة هي من وظائف المعرفة الجذرية.

(٤) النص الفارسي:

كـف شـاه محـمـود كشـور گشـاى
نـه انـدرنُـه آمـد سـه انـدر جـهـار

(٥) النص الفارسي:

مـعـانى هـرگـز انـدر حـرف نـايـد
كـه بحـر بـيـكـران در ظـرف نـايـد

(٦) شارك في المؤتمر الذي عقد قبل ٣٥ عاما تحت عنوان «التقريب بين المذاهب الاسلامية» والذي حضرته المذاهب الاسلامية المختلفة لحل الملابسات، ممثلون عن الاسماعيليين. وفي المؤتمر قال الشيعة والسنة مخاطبين الاسماعيليين، نحن لانعتبركم من المذاهب الاسلامية مطلقا وليس لكم حق المشاركة في هذا المؤتمر.

(٧) .. يابني اني أرى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدني ان شاءالله من الصابرين.

(الصافات / ١٠٢)

(٨) اننا نجد مع الأسف ان سوق الاستنتاجات المحرفة والتفاسير المقتبسة والافكار المعادية للاسلام قد اتسع نطاقها في عصرنا الراهن. وكان الاستاذ الشهيد آية الله مطهري قد استأنف نضالاً واسع النطاق لمواجهة هذه التيارات ولم يناضل في هذا الطريق بفكره وأسلوبه القوي فحسب، وانما ضحى بحياته من اجل هدفه.

(٩) مثلا نقرأ في آية الكرسي: «الله ولي الذين آمنوا. يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات».

(١٠) قيلت اشياء كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها حول هذا الحس الديني ونورد وفارقت روحه الدنيا.

وفي مجال حس الانسان المعنوي يورد الشاعر إقبال لاهوري حديثاً شيقاً فيقول: ليس هناك أي سر ولغز في هذا الكلام، وهو ان الدعاء يعتبر وسيلة الاشراق النفسي والعمل الحياتي والطبيعي، وبواسطته تكشف جزيرة شخصيتنا الصغيرة، موقعها في مجموع اكبر من الحياة. وهناك عبارة لوليام جيمز بهذا الصدد يقول فيها: دافع الدعاء هو

باختصار اقوال اثنين من المفكرين العالميين، تتعلق الأولى منها بالعالم «انشتاين» الذي يتناول المذهب في احدى مقالاته فيقول: كانت هناك ثلاثة انواع من المذاهب في العالم هي:

١. مذهب الخوف: أي مذهب جماعة اعتنقت المذهب على اثر مخاوفها من الطبيعة والمحيط.

٢. مذهب الاخلاق: هدفه منهبي ويستند الى المصالح الاخلاقية.

ثم يتحدث عن مذهب آخر يسميه بـــ «منهب الوجود». وهذا التعبير يشبه تعبيرنا عن القلب. ويعتقد انشتاين ان هذا المذهب يريد في الواقع ان يقول:

يحصل الانسان على حالة معنوية وروحية اذا ماخرج وتحرر من نطاق نفسه المحدود والمحاط بالآمال والأحلام الحقيرة والصغيرة والمنفصل عن الآخرين والتحرر كذلك من عالم الوجود الطبيعي الذي يشكل حصاراً حوله. وفي ذلك الوقت يبدأ النظر الى مجموع الوجود ويرى الوجود حقيقة واحدة ويرى بوضوح الروائع وانماط العظمة القابعة خلف الظواهر و يتذكر حقارته وتفاهته ثم يرغب في الاتصال بمجموع الوجود. وتعبير انشتاين هذا يذكرنا برواية همام الذي سأل اميرالمؤمنين(ع) عن صفات المؤمن فاعطاه الامام إجابة قصيرة ومقنعة حيث قال:

«يا همام اتق الله وأحسن إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»

«نهج البلاغة ــ الخطبة ١٨٣»

غير ان هماما لم يقتنع بهذه الاجابة وطلب توضيحات اخرى. فمثلا سأل عن الحياة والعبادة وكيفية قضاء الأيام والليالي وآداب المعاشرة و... الخ. لذلك تطرق الامام الى صفات المؤمن، ورسم ١٣٠ خطا من خطوط وجوه المتقين ومن جملة ماقال:

«لولا الآجال التي كتب الله لهم لم تستقر ارواحهم في ابدانهم طرفة عين»

وهذه هي نفس الحالة التي يشير اليها انشتاين قائلا: ان الانسان المذهبي يعتبر وجوده نوعاً من السجن المحاصر لانه يريد ان يطير من قفص الجسم ويرى الوجود كله ككتلة واحدة. هذه الحقيقة قد تجلت بشكل أوسع وأفضل في كلمات أميرالمؤمنين(ع). برأي الامام علي(ع) كأنّ المؤمن جمع كل الوجود في جسمه المادي. ولهذا السبب يغادر قالبه ويحرر روحه. يقال ان هماما عندما انهى الامام حديثه، اطلق صرخة من اعماقه

نتيجة ضرورية لهذا الأمر وهو ان أعمق الارادات الاختيارية والعملية لكل شخص يعتبر نوعا من الإرادات الاجتماعية ومع ذلك فان الانسان يستطيع ان يجد مصائبه الكاملة في عالم افكاره فقط وان اكثر الناس يرجعون في قلوبهم اليه سواء باستمرار او عن طريق الصدفة، واحقر فرد على وجه الكرة الارضية يحس بهذا التصورالسامي وهوانه شخص حقيقي وذوقيمة ومن المحتمل ان يكون هناك تباين بين الناس من حيث درجات التأثر. وهذا التصوريشكل لبعض الناس دون غيرهم الجزء المهم من الوعي الذاتي. مثل هؤلاء الناس يحتمل ان يكونوا اكثر الناس التزاما بالدين، لكنني على ثقة من ان الذين يدعون افتقارهم الكلي لذلك، لايخدعون إلاّ أنفسهم، ذلك انهم يلتزمون بالدين الى حد ما.

(١١) كان الأئمة(ع) يقرأون القرآن بصوت متناغم. بحيث ان المارة الذين كانوا يسمعون ذلك الصوت، كانوا يتوقفون دون اختيار وينهمكون بالبكاء.

(١٢) قال الامام زين العابدين(ع) في دعاء علّمه ليُقرأ بعد ختم القرآن... واجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مؤنسا.

(١٣) وفي زمننا الراهن ايضا، تحقق هذا الوعد الإلهي الصادق مرة أخرى عندما قام رجل من سلالة النبي(ص) مثل جده بتوجيه الضربات المهلكة لجند الكفر وقوى الباطل معتمدا في هذا العمل على القرآن والايمان فقط.

(١٤) يذكر أميرالمؤمنين(ع) في الخطبة ١٩٣ المعروفة بخطبة المتقين من نهج البلاغة صفات المتقين. وبعد ان يتطرق الى تصرفاتهم وأقوالهم يصف بعض حالات هؤلاء في الليل وعلى حد قول الشاعر الايراني سعدي يصف ليل رجال الله ويقول: اما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا. يحزّنون به انفسهم ويستثيرون به دواء دائهم. فاذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعا، وتطلعت نفوسهم اليها شوقا، وظنوا أنها نصب أعينهم. واذامرّوابآية فيها تخويف أصغوا اليها بمسامع قلوبهم وظنوا ان زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم.

(١٥) «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا انا نصارى».

(المائدة / ٨٢)

(١٦) هذه الآية من أعجب آيات القرآن، عندما نزلت كان النبي في مكة يتحدث

الى أهالي احدى القرى. وكان من (الباعث على السخرية) ان يقول شخص باطمئنان، انكم ستسمعون بعد حين بنبأ هذه الآية. ستسمعون ماذا سيفعل هذا الكتاب في العالم خلال فترة قصيرة.

(١٧) ذلك ان الحق والعدل للمتمسكين في تلك الحالة سيكونان بلا هدف، لأن تحقيق المصالح وإرضاء الرغبات سيكونان هدفاً.

(١٨) الشاعر الايراني سعدي يعطي نفس المضمون في هذا البيت الجميل:

به نطق آدمي بهتر است از دواب

دواب از توبه گر نگويى صواب

كلام الانسان أفضل من الدواب

إلاّن الدواب أفضل منك اذالم تقل الحق

(١٩) مثلا اذا ارشدنا أمر الى أمر فاننا نطلق عليه، اسم الدلالة. والدلالة لها انواع متعددة من جملتها الدلالة اللفظية وهذا الأمر يتحقق في ثلاث حالات:

أ ــ دلالة المطابقة، أي ان يدل اللفظ على معناه الكامل. مثلا عندما نقول سيارة، نعني السيارة وكافة اجزائها.

ب ــ دلالة التضمن، أي ان يدل اللفظ على جزء من معناه مثلا نقول هنا سيارة نفهم من هذا الكلام ان ماكنة ومقاعد السيارة موجودة هي الاخرى هنا.

جــ الدلالة الالتزامية، اي ان يدل اللفظ على أمر خارج عن معناه. مثلا عندما نسمع اسم «حاتم» فان الجود والكرم يخطران ببالنا.

(٢٠) من جملة الأخطاء التي وقعت في مجال العلم خلال عدة قرون وأدّت إلى ملابسات كثيرة، ان البعض ظن ان وظيفة منطق ارسطو تقوم كذلك بتحديد خطأ أو صحة مادة الاستدلال. وبما ان منطق ارسطو كان عاجزاً عن القيام بهذا العمل فقد ادّعوا عدم فائدة منطق ارسطو.ومع الاسف فان هذا الخطأ الكبير يتكرر كثيراً في عصرنا الراهن وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان أصحاب هذه الأقوال لايملكون معرفة حقيقية عن منطق ارسطو ولا يفهمونه واذا أردنا الاستفادة من نفس المثال لزم ان نقول ان وظيفة منطق ارسطو في تحديد صحة الاستدلال تشبه وظيفة الشاقول في تعيين

استقامة الحائط ولايمكن بواسطة الشاقول معرفة ما اذا كان الطابوق والاسمنت المستخدم في الحائط من نوع جيد أم لا، فالشيء الوحيد الذي يوضحه الشاقول هو استقامة الجدار أو عدم استقامته فقط ولاينفي أو يثبت صحة المادة، حيث يبقى ساكتا لانه لايستطيع ان يقول شيئا.

(٢١) قاعدة ديكارت الأولى تقول نفس الشيء. يقول ديكارت: انني بعد اليوم لن أقبل أية مسألة كانت مالم أدرسها وأحقق حولها واذا لم أتأكد منها مئة بالمئة فلن أستفيد منها وأهملها. هذا هو المعنى الصحيح لليقين.

(٢٢) لكن يجب ان نعلم انه عندما لانحصل على يقين في المسائل الظنية والمحتملة يجب ان نأخذ الظن بنظر الاعتبار. ويلزم قبول الظن بدل الظن والاحتمال بدل الاحتمال وليس الاحتمال بدلامن اليقين لانه يوقعنا في الأخطاء.

(٢٣) هذه المسألة وردت في أحاديث بيكن وبما انه يسمي أحد الاصنام التي يتحدث عنها بالصنم الاجتماعي أو العرفي فهو لم يتحدث سوى عن هذا التقليد الأعمى.

(٢٤) يلزم عدم دمج مسألة تقليد الآباء والأجداد أو الكبار ولون المجتمع التي ينهى القرآن عنها مع مسألة تقليد المجتهد العالم والعادل المطروح في الفقه والذي يعتبر أمراً واجباً ويعتمد على مراعاة التخصص والاستفادة من عالم التخصص.

(٢٥) النص الفارسي هو:

دلم رميده شد و غافلم من درويش

كه اين شكارى سرگشته را چه آمد پيش

(٢٦) نقرأ في سورة النجم مايلي:

«وماينطق عن الهوى، ان هو إلاّ وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذومرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الى عبده ما أوحى، ماكذب الفؤاد مارأى».

(الآيات / ٣ــ١١)

يقول القرآن جميع هذه الأشياء ليؤكد ان مستواها يفوق نطاق عمل العقل. اذن فالكلام هنا يدور عن الرؤية والتعالي.

أو أننا نقرأ في آيات من سورة التكوير مايلي:

«وماصاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين، وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون، ان هو إلاّ ذكر للعالمين، لمن شاء منكم ان يستقيم، وما تشاؤون إلاّ ان يشاء الله رب العالمين».

ويقول الشاعر إقبال لاهوري في هذا المجال: ان النبي شخص يعرف حقائق لا تعد ولا تحصى ويبين ما أتاه لتحسين الأوضاع وتغيير مسير التاريخ.

(٢٧) النص الفارسي هو:

پس پيمبر گفت استفتِ القلوب

گر چه مفتيشان برون گويد خطوب

(٢٨) النقل بالمعنى.

الفهرست